

الطَّبِيبُ الْفَرَجَانِيُّ

لِلْعَلَّامَةِ الْحَافِظِ جَمَالِ الدِّينِ أَبِي الْفَرَجِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْجَوْزِيِّ

الْمُتَوَفَّى بِبَغْدَادِ سَنَةِ ٥٩٧ هـ

في فضل العقل . في ذم الهوى . في الفرق بين ما يرى العقل
وما يرى الهوى . في دفع البخل . في النهي عن التبذير والحض على
الاقتصاد . في بيان مقدار الاكتساب والإنفاق . في ذم الكذب . في
دفع الكسل والحض على الجد والعمل . في رياضة النفس . في رياضة
الأولاد . في معاشره الناس ومداراتهم . في ذكر السيرة الكاملة . .. إلخ

تحقيق

أَبُو هَارِبٍ مُحَمَّدُ السَّعِيدُ بْنُ يَسِيْرٍ تَوَفَّى رَحِمَهُ اللهُ

خَادِمُ السَّنَةِ الْمَطْرَةِ

الناشر

مَكْتَبَةُ الْقَافَةِ الدِّينِيَّةِ

١٤ مِيْرَانَةِ الْعَبَةِ الْقَاهِرَةِ

ت ٩٢٢٦٥٠

حقوق الطبع والنشر محفوظة

للمنشر

مكتبة الثقافة العربية

لصاحبها: أحمد أنسى عبد المجيد

١٤ ميدان العتبة القاهرة

ت ٩٢٢٦٣٠

رقم الإيداع ٨٦/٥٠٣٢

الطبعة الأولى

١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م

مطبعة المدنى

المؤسسة السعيدة بمصر
٦٨ شارع المباسية - القاهرة ت : ٨٢٧٨٥١



ترجمة المؤلف

هو عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي القرشي البغدادي أبو الفرج (١) .

علامة عصره في التاريخ والحديث كثير التصانيف .

مولده ووفاته ببغداد ولد سنة تسع أو عشر وخمسمائه ونسبته إلى « مشرعة الجوز » .

له نحو ثلاثمائة مصنف منها :

طبع قطعة منه	تلقيح فهم أهل الآثار في مختصر السير والأخبار
طبع	الأذكياء وأخبارهم
طبع	الموضوعات
طبع	مناقب عمر بن عبد العزيز
طبع	روح الأرواح
مخطوط	شذور العقود في تاريخ العهود
طبع	زاد المسير في علم التفسير
طبع ستة أجزاء منه	المنتظم في تاريخ الملوك والأمم
مخطوط	الذهب المسبوك في سير الملوك
طبع	الحمقى والمغفلين
طبع	الوفا في فضائل المصطفى ﷺ
طبع	مناقب عمر بن الخطاب

(١) الأعلام للزركلى ٣/٣١٦ و ٣١٧ ، سير أعلام النبلاء ٢١/٣٦٥

مناقب أحمد بن حنبل
غريب الحديث
التحقيق
ومصنفات عديدة في شتى العلوم
طبع
طبع
طبع منه الجزء الأول

وفاته :

توفي رحمه الله ليلة الجمعة بين العشاءين الثالث عشر من رمضان
سنة سبع وتسعين وخمسمائة في داره .

ودفن رحمه الله بباب حرب قرب قبر الإمام أحمد بن حنبل رحمه
الله أسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا جميعاً لما يحبّه ويرضاه وأن يجعل عملنا
خالصاً لوجهه الكريم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
وكتبه

أبو هاجر / محمد السعيد بن بسيوني زغلول الإبياني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى قدر الداء ودبر الدواء وكف وهب لمن أشفى على شفا هلكة الشفاء أحمدته على كل ما صدر عن قضائه وجاء وأعلق بفضله ومنه الرجاء وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له نور الفضاء فضاءً وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف من وطىء الأرض والسماء وعلى أصحابه وأزواجه صلاة تعم الأتباع والأولياء وسلم تسليماً كثيراً . لما جمعت كتاباً فى طب الأبدان وسميته [لقط المنافع] آثرت أن أشفعه بكتاب فى طب النفوس أسميه « الطب الروحاني » فإن طب الأبدان إصلاح الصور وطب النفوس إصلاح المعاني وهى أشرف وإلى الله سبحانه الرغبة فى النفع العاجل والأجر الآجل إنه جدير بتبليغ الآمال من منّه (١) .

﴿ مقدمة قبل الكتاب ﴾

اعلم أن جميع ماوضع فى الآدمى إنما وضع لمصلحته إما لاجتلاب نفع كشهوة المطعم أو لدفع ضرر كالغضب فإذا زادت شهوة المطعم صارت شرهاً فأذت وإذا زاد الغضب أخرج إلى الفساد . وهذا الكتاب موضوع لاستعمال قانون الصواب من خلال الباطن وكف كفى الهوى عن المؤذى منها وعلاج ماخرج لموافقة الشهوة عن القانون الصحيح . وقد قسمته ثلاثين باباً :

(١) تم الإعتاد فى التحقيق على النسخة المطبوعة بمطبعة الترقى بدمشق سنة ١٣٤٨ هـ وناشرها مكتبة القدسى .

﴿ ترجمة الأبواب ﴾

(الأول) في فضل العقل . (الثاني) في ذم الهوى . (الثالث) في الفرق بين ما يرى العقل وما يرى الهوى . (الرابع) في دفع العشق عن النفس . (الخامس) في دفع الشره . (السادس) في رفض رياسة الدنيا . (السابع) في دفع البخل . (الثامن) في النهي عن التبذير . (التاسع) في بيان مقدار الاكتساب والإنفاق . (العاشر) في ذم الكذب . (الحادى عشر) في دفع الحسد . (الثانى عشر) في دفع الحقد . (الثالث عشر) في دفع الغضب . (الرابع عشر) في دفع الكبر . (الخامس عشر) في علاج العجب . (السادس عشر) في علاج الرياء . (السابع عشر) في دفع فضول الفكر . (الثامن عشر) في دفع الحزن . (التاسع عشر) في دفع الهم والغم . (العشرون) في دفع الخوف والحذر من الموت . (الحادى والعشرون) في دفع فضول الفرح . (الثانى والعشرون) في دفع الكسل . (الثالث والعشرون) في تعريف الرجل عيوب نفسه . (الرابع والعشرون) في تنبيه الهمة الدنية . (الخامس والعشرون) في ذكر رياضة النفس . (السادس والعشرون) في رياضة الأولاد . (السابع والعشرون) في رياضة الزوجة ومداراتها . (الثامن والعشرون) في رياضة الأهل والممالك . (التاسع والعشرون) في معاشرة الناس ومداراتهم . (الثلاثون) في ذكر السيرة الكاملة .

الباب الأول في فضل العقل

قد اختلف الناس في ماهية العقل ومسكنه (١) ، وأطالوا ، وقد رُويت في فضله أحاديث كثيرة ، وقد ذكرنا جملةً من ذلك في كتابنا المسمى « بدم الهوى » فلا نعيدها بل نذكر ههنا جملة فنقول :

إنما يعرف فضل الشيء بثمرته ، ومن ثمرات العقل معرفة الخالق سبحانه ، فإنه استدل عليه حتى عرفه ، وعلى صدق الأنبياء حتى علمه ، وحث على طاعة الله ، وطاعة رسله ، ودبر في نيل كل صعب حتى ذلل البهائم ، وعلمه صناعة السفن التي بها يتوصل إلى ما حال بيننا وبينه البحر ، واحتال على طير الماء حتى صيدت ، وعينه أبداً تراقب العواقب وتعمل بمقتضى السلامة فيها والعوز ، ويترك العاجل للآجل ، وبه فضل آدمي على جميع الحيوان الذي فقده ، وبه تأهل آدمي لخطاب الله سبحانه وتكليفه ، وبه يبلغ الإنسان غاية ما في جوهر مثله أن يبلغه من خير الدنيا والآخرة من العلم والعمل ، وكفى بهذه الأشياء فضيلة لا ببعضها . فليكتف بهذه الجملة عن الإطالة .

(١) جاء في تاج العروس ٢٥/٨ مانصه :

(العقل العلم به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية) . واشتقاقه من العقل وهو المنع لمنعه صاحبه مما لا يليق أو من المعقل وهو الملجأ لالتجاء صاحبه إليه كذا في التحرير لابن الهمام .

وقال بعض أهل الاشتقاق العقل أصل معناه المنع ومنه العقال للبعير سمي لأنه يمنع عما لا يليق قال :

قد عقلنا والعقل أى وثاق وصبرنا والصبر مر المذاق

وقال ابن فرحون العقل نور يقذف في القلب فيستعد لادراك الأشياء وهو من العلوم الضرورية .

الباب الثانى فى ذم الهوى

الهوى ميل الطبع إلى مايلائمه ، فلا يذم هذا المقدار إذا كان المطلوب مباحاً ، وإنما يذم الإفراط فيه ، فمن أطلق ذم الهوى فلائن الغالب فيه مالا يحل أو يتأول المباح بإفراطه ، واعلم أن النفس منها جزء عقلى فضيلته الحكمة ورذيلته الجهل ، وجزء غضبى فضيلته الحدة ورذيلته الجبن . وجزء شهوانى فضيلته العفة ، ورذيلته اطلاق الهوى ، فالصبر عن الرذائل فضيلة للنفس ؛ بها يحتمل الإنسان الخير والشر ؛ فمن قل صبره فحكم هواه على عقله فقد صير المتبوع تابعاً والمأموم إماماً ، فلا جرم أن جميع ما يرومه ينعكس عليه ، فإنه يتأذى من حيث قدر النفع ويحزن من حيث أراد الفرح .

وإنما فضل آدمى على الحيوان البهيمى بالعقل الذى أمر بكف الهوى ، فإذا لم يقبل قوله وحكم الهوى كان الحيوان البهيمى أعذر من آدمى ، ويدل على فضل خلاف الهوى تقديم كلب الصيد وإكرامه على أبناء جنسه ، وذلك لمكان مخالفته للهوى من حبس ماصاده على صاحبه دون أكله خوفاً من عقوبته أو شكراً لنعمته .

واعلم أن الهوى فى ضرب المثل كالماء الجارى الحديد الجرية ينحدر بسفينة الطبع . والعقل مرادفان عقل المراد وتوانى مر الماء بالسفينة . وينبغى للعاقل أن يعلم أن مقاساة الشدة فى خلاف الهوى أسهل مما يلقي فى موافقته . وأقل مايلقى موافقو الهوى أنهم يصيرون إلى حالة لا يلتذون به فيها ثم لا يصبرون عنه ، لأنه يصير بالإدمان عادة . كمدمنى الجماع وشراب الخمر . والتفكر فى هذه الأشياء تهون على الإنسان رفض الهوى . ومما يهون الهوى أن يتفكر الإنسان فى نفسه فيعلم

أنه لم يخلق لموافقة الهوى ، فإن الجمل يأكل أكثر منه ، والعصفور يسافد أكثر والبهائم مطلقة في محبوباتها من غير حصر ولا يشوبهم ، غم فلما نقص حظ آدمى من الشهوات ، ثم شبيت بالنقص علم أنه لم يخلق لذلك . وقد بينت لك أن المذموم من الهوى ما أفرط وهو الذى يحكم عليه العقل بالخطأ ، فأما ماتهواه مما تضطر إلى تناوله ويعينها على إصلاح حالها فممدوح لامذموم .

* * *

الباب الثالث

في الفرق بين ما يرى العقل وما يرى الهوى

إعلم أن الهوى يدعو إلى اللذة من غير فكر في عاقبته ، وقد يعلم أن تلك اللذة تجلب ألماً يربو عليها وتمنع صاحبها نيل أمثالها ، والهوى معرض عن النظر في ذلك ، وتلك حالة البهائم ؛ إلا أن البهائم أعذر ، لأنها لا ترى العاقبة ، ولا ينبغي للعاقل أن ينزل عن رتبة بها شرف وارتفع إلى مقام من حط ، فأما العقل فإنه يراقب العواقب وينظر في المصالح فمثله كمثّل الرجل الحازم والطبيب الناصح .

ومثل الهوى كمثّل الصبي الجاهل والمريض الشره ، فينبغي للبيب إذا اختلف عقله وهواه ، وقد علم أن العقل عالم ناصح ، أن يستشير ، أن يصبر على مضض ما يأمر به ، ويكفيه في إثارة العقل علم بفضله . فإن رام زيادة دليل على صحة قوله فليتأمل عواقب ما يجنيه الهوى على أربابه من هتك الأستار والفضيحة بين الخلق وحط المنزلة وفوت الفضائل ، وهل وكس جاه أو ذل عزيز أو صيد طائر إلا بموافقة الهوى ؟ ومما يوضح له الدليل أن يقدر بلوغ غرضه قبل نيله ، ثم ينظر في حاله بعد انقضاء لذته وما اكتسبه ويزن الإلتذاذ بالجناية فيعلم حينئذ أنه قد خسر أضعاف مابيح وقد أنشدوا في ذلك :

كم لذة مستفزة فرحاً قد انجلت عن غموم آفات
كم شهوات سلبن صاحبها ثوب الديانات والمروءات

واعلم أن الإنسان إذا وافق هواه وإن لم يضره وجد من نفسه ذلاً لمكان أنه مغلوب ، وإذا قهر هواه وجد في نفسه عزاً لأجل أنه غالب ، ثم أنت ترى الناس إذا شاهدوا زاهداً تعجبوا منه وقبلوا يده وماذاك إلا لأنه قوى على ترك ما ضعفوا عنه من مخالفة الهوى .

الباب الرابع في دفع العشق عن النفس

هذا مرض قد تلف به خلق كثير تارة في أبدانهم وتارة في أديانهم وتارة فيهما . ولأجله وضعت كتاب « ذم الهوى » وقد ذكرت هناك من الأدوية مايكفى ويشفى ، إلا إنى أذكر ههنا جملة لئلا يخلو الكتاب مما قد رسم فيه ؛ فأقول من احتتمى عن التخليط بغض البصر وكف النظر سلم من هذا المرض ؛ فإذا لم يحتم حصل عنده من المرض بمقدار تخليطه ، فإن تدارك الأمر قبل استحكامه فربما نفع الدواء وإن تركه إلى أن يستحكم لم ينفعه علاج . واعلم أن مجرد النظر إلى المستحسن لا يكاد يوجب العشق ، وإنما يزداد النظر يحصله ويعينه قوة الطمع ، فيساعده الشباب والشهوة ، فمن أراد العلاج فليبادر به قبل أن يستحكم المرض وذلك بقطع السبب والصبر في ذلك على المضض ، فإن البأس أعظم دواء ، وأقوى معين على ذلك خوف الله تعالى وزجر النفس الأبية عن مواقف الذل وتذكر عيوب المحبوب الباطنة كما قال ابن مسعود : إذا أعجبت أحدكم امرأة فليذكر مثالبها (١) .

ومتى كان المحبوب مقدوراً عليه مباحاً كان الجمع بينهما أعظم الدواء ، وإلا فالنكاح في الجملة يخفف المرض ، واستجداد الزوجات واستحداث الجوارى وطول السفر والتفكر في خيانة المحبوب وتجنیه ، والنظر في كتب الزهد وذكر الموت وعيادة المرضى وزيارة القبور . ثم يتفكر في وجود غرضه وانقضائه وسأته مع الزمان وتغير . الخلق وليتصفح العبر في نفسه وغيره فلعل غيره يأخذ بيده فينتاشه من هذه الهوة ويجتذبه من هذه الورطة .

(١) قال الزبيدي في تاج العروس :

المثالب : هي العيوب ، ومثالب الأمير والقاضى معاييه

كما روينا أن رجلاً كان يهوى غلاماً فنظر يوماً في المرأة فرأى طاقة
شيب فهجر الغلام فكتب الغلام إليه :

مالي جفيت وكنت لأجفى ودلائل الهجران لا تخفى
وأراك تشربنى فتمزجنى ولقد عهدتك شاربي صرفاً
فكتب إليه في الجواب :

أتصالي مع الشمط سمتني خطة شطط
لاتلمني على جفا ي فحسبي بما فرط
أنا رهن بما جني ست فذرني من الغلط
قد رأينا أبا الخلا ثق في ذلة هبط

الباب الخامس في دفع الشره

اعلم أن الشره إذا أطلق انصرف إلى موافقة الهوى في المطاعم . ولم
قد أوجبت من أمر فزالت بأربابها إلى التلف وهى علة لتولد عن قوة
النفس الشهوانية .

قال الحارث بن كلدة (١) الذى قتل البرية وأهلك السباع في
البرية ادخال الطعام على الطعام .

وقال غيره لو قيل لأهل القبور ما كان سبب آجالكم لقالوا التخم .
وساق بسنده إلى الحسن قال قيل لسمره إن ابنك لم ينم الليلة
قال أبشما (٢) قيل بشماً قال لو مات لم أصل عليه .
البشم في الطعام والبغر في الماء .

قال رجل لرجل يعيره مات أبوك بشماً وماتت أمك بغراً .
وعن عقبة الراسبي قال دخلت على الحسن فوافقته يتغدى فقال
هلم فقلت أكلت حتى لا أستطيع أن آكل ، فقال سبحان الله ويأكل
المسلم حتى لا يستطيع أن يأكل ؟

(١) الأعلام للزركلى ١٥٧/٢ : الحارث بن كلدة الثقفى ، طبيب العرب في
عصره ، وأحد الحكماء المشهورين من أهل الطائف ، رحل إلى بلاد فارس رحلتين ، فأخذ
الطب عن أهلها ، مولده قبل الإسلام ، وبقي أيام رسول الله ﷺ وأيام أبى بكر وعمر
وعثمان وعلى ومعاوية ، واختلفوا في إسلامه وكان النبى ﷺ يأمر من به علة أن يأتيه
فيتطيب عنده له كلام في الحكمة وكتاب « محاوره في الطب » بينه وبين كسرى
أنوشروان .

(٢) تاج العروس ٢٠٢/٨ : البشم أن يكثر من الطعام حتى يكرهه وفي حديث
الحسن :

وأنت تتجشأ من الشبع بشماً
وفي حديث سمرة بن جندب : وقيل له إن ابنك لم ينم البارحة بشماً قال : لو مات
ماصليت عليه .

فصل

واعلم أن العاقل يجب أن يأكل ليبقى ، والجاهل يؤثر أن يبقى ليأكل ، ورب لقمة منعت لقمات وكانت سبب الهلاك ، وقد بينت عيوب الشبع في كتاب « لقط المنافع » . وإنما المقصود ههنا زجر النفس الشرهة لتكف الكف عما يؤذيها . وفيما ابتدأت به من ذكر فضل العقل ودم الهوى ما يكفي في الامتناع من كل رذيلة وهجر ما يخاف عواقبه .

فصل

وقد يكون الشره في الجماع ؛ وقد بينت في كتاب « اللقط » أنه كلما كثر استعماله امتنعت أوعية المنى فأنجذب إليها غذاء ليس بنضيج ، واستلبت قوى الأصول وهي الدماغ والقلب والكبد ، فتبرد الحرارة الغريزية ، ويسرع لذلك الهلاك . ثم إن صورة الوطء تنبو عنها النفوس الشريفة إلا أن يدفع شر محتقن أو يطلب ولد ، فإما أن يصير عادة يكون بالتمتع بنفس الفعل فتلك مزاحمة البهائم .

فصل

وقد يقع الشره في جمع المال وهو من الجنون البارد إذا زاد على قدر الحاجة ، لأن المال لا يراود لنفسه وإنما يراود لغيره ، ولا ينكر على من جمع ما لاغنى للنفس عنه ، فاستغنى به عن الناس ، وأغنى أولاده ، وبذل بعضه للمحتاجين ، إلا أنه ينبغي للعاقل بعد حصول المقدار والمتوسط من ذلك أن لا يضيع الزمان الشريف ، وأن يخاطر بالروح التي لا قيمة لها ، في الأسفار وركوب البحار وما أحسن قول الشاعر :

ومن ينفق الأيام في جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر
وكم قد رأينا وسمعنا عن أقوام يقترون على أنفسهم في الإنفاق ،
ويركبون مع كبر السن البحار ليروحوا بزعمهم فهلكوا في أسفارهم ، وما
بلغوا بعض أغراضهم ؛ وهذا المرض ينبغي أن يداوى بتلميح المقصود من
المال ، والموازنة بين حصوله وبين المخاطرة بأنفس نفيس وهى النفس
والوقت ، فمن شاور عقله فهم المراد ، ومن غلبه مرض الحرص هلك في
بيداء الشره ، ولا وارث إلا المطية والرحل .

فصل

وقد يقع الشره في فنون ما يلتذ به من الأبنية المنقوشة ، والخييل
المسومة ، والملابس الفاخرة ، وغير ذلك ، وهذا مرض أصله موافقة
الهوى ، وعلاجه أن يعلم أن الحساب على كسب الحلال ، شديد
عزير ، والتبذير ممنوع منه ، وأن الله تعالى لا ينظر إلى من جر ثوبه
خيلاء ، وأن كل شيء يؤجر المؤمن عليه إلا البناء ، فالعاقل من نظر في
مقدار إقامته ، وتلمح بيت نقلته ، فحينئذ يقنع من الثياب بما يواريه ،
ومن البنیان مايؤويه .

وفي الحديث أن نوحاً عليه السلام لبث في بيت شعر ألف سنة
إلا خمسين عاماً . وأن رسول الله ﷺ ما وضع لبنة على لبنة . وكان في
ثوب عمر إثنا عشر رقعة فهؤلاء فهموا أن الدنيا مفازة والمفازة لا تتوطن ،
فمن فاته العلم بهذا مرض الشره ، وعلاجه النظر في العلم ، والتأمل
بسير العلماء العقلاء .

الباب السادس في رفض رياسة الدنيا

اعلم أن النفس تحب الرفعة والعلو على جنسها فتؤثر ، الإمارة والولاية لمكانة الأمر والنهي ، وهذا وإن كان مطلوباً إلا أن فيه مخاطرات أقلها العزل بعد الولاية ، وأعظمها الجور في الحكومة ، وأوسطها تضييع الزمان إذا لم تصح للوالى نية .

وينبغي لمن أحب الولاية أن يعلم أنه إنما يتخايلها عظيمة ما لم ينلها ، فإذا نالها هانت عنده ، وسما إلى غيرها ، فاللذة تزول ، والأوزار تبقى ، والمخاطرة بالنفس والدين ، فالتفكر في هذه الأشياء علاج .

بسنده إلى أبي أمامة عن النبي ﷺ قال « مامن رجل يلي أمر عشرة فما فوق ذلك إلا أتى الله عز وجل يوم القيامة مغلوله يده إلى عنقه فكه بره أو أوبقه إثمه أولها ملامة وأوسطها ندامة وآخرها خزي يوم القيامة (١) » .

بسنده إلى أبي هريرة مرفوعاً « ويل للأمرء ويل للعرفاء ويل للأمناء لیتمنین أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم كانت معلقة بالثریا يتذبذبون بين السماء والأرض ولم يكونوا عملوا على شيء » (٢) .

وفي « افراد مسلم » من حديث أبي ذر قال قلت يارسول الله ألا تستعملنى قال فضرب بيده على منكبى ثم قال « يا أبا ذر إنك ضعيف

(١) أخرجه الطبرانى في الكبير ٢٠٤/٨ ، وأحمد ٢٦٧/٥ وابن عساكر ٣٥٦/٥ ، والشجرى ٢٢٦/٢ .

وقال الهيثمى في مجمع الزوائد ٢٠٤/٥ ، رواه أحمد والطبرانى وفيه يزيد من أبى مالك وثقه ابن حبان وغيره وبقية رجاله ثقات .

(٢) أخرجه أحمد ٣٥٢/٢ ، البيهقى ٩٧/١٠ وابن عساكر ١٧١/٦ .

وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها « (١) .

وفى لفظ آخر « يا أبا ذر إني أحب لك ما أحب لنفسى لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم » (٢) .

* * *

(١) أخرجه مسلم الإمارة (١٦) رقم ١٨٢٥ .

(٢) أخرجه مسلم الإمارة ١٦ بلفظ « يا أبا ذر إني أراك ضعيفا وإني أحب لك ما أحب لنفسى لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم » .

الباب السابع في دفع البخل

اعلم أن مجرد الإمساك للمال لا يسمى بخلاً ، لأن الإنسان قد يمسك فاضل المال لحاجته ، ولحوادث دهره ، ولأجل عياله وأقاربه ، وهذا كله من باب الحزم ، فلا يذم ، وقد يجد قوم قوة في النفس بحفظ المال ، وإنما يقع اسم البخل على مانع الحق الواجب ، قال ابن عمر من أدى الزكاة فليس ببخيل ، ثم يقال لمن منع مالا يضره ولا يكاد يؤثر فيه مما ينتفع به الناس بخيل .

وقد قال النبي ﷺ « وأى داء أدوأ من البخل » (١) .

قال أبو محمد الرامهرمزي : إنما يشبه البخل بالداء لأنه يفسد الخلق ويدفع عن السؤدد ويكسب سوء الثناء والمذمة كما أن الداء يضعف الجسم ويبطل الشهوة ويغير اللون .

وقد قالت الحكماء :

الكريم حر لأنه يملك ماله والبخيل لا يستحق اسم الحرية لأن ماله يملكه .

وبسنده عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال « إياكم

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ٢١٩/٣ ، ١٦٣/٤ و ١٦٤ والبخارى في الأدب المفرد ٢٩٦ . وعبد الرزاق في مصنفه (٢٠٧٠٥) . والطبري في التفسير ١٠٤/١٠ . وأحمد ٣٠٧/٣ و ٣٠٨ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم أمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالفجور ففجروا» (١) .

وقال عليه السلام « خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق » (٢) .

قال الخطابي الشح أبلغ من البخل فهو بمنزلة الجنس والبخل بمنزلة النوع .

وقال بعضهم البخل أن يضمن بماله والشح أن يبخل بماله ومعروفه .

وقال بشر الحافي لقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين . وعلاج البخل أن يتفكر ، فيرى أن فقراء بني آدم إخوانه ، وقد أوثر عليهم وأحوجوا إليه ، فليجعل شكر المنعم مواساة الإخوان ، ولينظر في شرف الكرم ، وليعلم أنه يسترق الأحرار إذا أسدى إليهم معروفًا ، وينهب عرضه الأشرار إذا بخل ، وليتيقن أنه سترك ما في يديه ذميما ، فليخرج منه قبل أن يخرج عنه .

(١) أخرجه أحمد ١٦٠/٢ و ١٩٥ ، أبو داود ١٦٩٨ عن عبد الله بن عمرو قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح ؛ أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا .

وقال الخطابي : الشح أبلغ في المنع من البخل وإنما الشح بمنزلة الجنس والبخل بمنزلة النوع ، وأكثر ما يقال في البخل إنما هو في أفراد الأمور وخواص الأشياء ، والشح عام وهو كالوصف اللازم للإنسان من قبل الطبع والجيلة .

وقال بعضهم البخل أن يضيق بماله والشح أن يبخل بماله وبمعروفه . والفجور ههنا الكذب وأصل الفجور الميل والانحراف عن الصدق ويقال للكاذب قد فجر أي انحرف عن الصدق اهـ .

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٦٢) وأبو نعيم في الحلية ٣٨٩/٢ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

الباب الثامن في النهي عن التبذير

التبذير مما يأمر به الهوى وينهى عنه العقل ، وأحسن الأدب في هذا الباب تأديب الحق سبحانه وتعالى حين قال : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء / ٢٦] الآية

واعلم أن الإنسان قد يعطى رزق شهر في يوم فإذا بذر فيه بقى شهراً يعاني البلاء ، وإذا دبر فيه عاش شهراً طيب العيش .

وعلاج مرض التبذير النظر في العواقب ، والحذر مما يجوز ، كونه من الحاجة إلى الناس والفقر فذلك يكف كف التبذير .

الباب التاسع في بيان مقدار الاكتساب والإنفاق

فينبغي للعاقل أن يكتسب أكثر مما يحتاج إليه ، ويقتنى ما يعلم أنه لو حدث به حادثة كان في المقتنى عوض عما ذهب ، ولو عرض له مانع من الاكتساب قام المقتنى بحاجته بقية عمره ، ولو جاءه أولاد واحتاج إلى فضل زوجة وخادم واحتاج ولده إلى مثل ذلك كان في كسبه ما يكفيه ، وفي الجملة ينبغي أن تكون النفقة أقل من الكسب ، ليقتنى من الفضل ما يكون معداً لحادثة لا تؤمن ، وهذا ما يأمر به العقل الناظر في العواقب ، ولا يبالى به الهوى الناظر إلى الحالة الحاضرة .

وساق بسنده إلى أبي الدرداء مرفوعاً « من فقه الرجل بعد النظر في معيشته » (١) .

وقد روى موقوفاً .

* * *

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢١١/١ عن أبي الدرداء موقوفاً .

الباب العاشر فى ذم الكذب

هذا من العوارض التى يدعو اليها الهوى . وذلك أن الإنسان لمحبه الرياسة يؤثر أن يكون مخبراً معلماً لعلمه بفضل المخبر على المخبر . وعلاج هذا المرض أن يعلم عقوبة الله للكاذب ، وأن يتيقن أنه مع استدامة الكذب لابد أن يطلع على حاله ، فينقص نقصاً لا يتلافى ، فيربو حياؤه ونخجله واحتقار الناس له وتكذيبهم إياه فى الصدق وقلة ثقتهم به على ما اكتذبه .

بسنده عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ : « ما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » (١) وقال ابن مسعود : كل الخلال يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب (٢) .

* * *

(١) أخرجه مسلم البر والصلة (١٠٥) .

(٢) الشفا ٢١٥/١ . الإتحاف ٥١٨/٧ .

وضعف البيهقى رفع الحديث وقال الدارقطنى الموقوف أشبه بالصواب .

الباب الحادى عشر فى دفع الحسد

الحسد تمنى زوال نعمة المحسود ، وإن لم يصبر للحاسد مثلها .
وسبب ذلك حب الميزة على الجنس ، وكراهة المساواة . فإذا حصلت
للغير نعمة تميز بها تألم هذا الإنسان لتلك الميزة أو بمساواته له فيها ؛ فلا
يزيل ذلك الألم إلا زوال تلك النعمة عن المحسود ، وهذا أمر لا يكاد أحد
ينفك منه فى باطنه ، ولا يأثم الإنسان بوجود ذلك بل يأثم بالتمنى لزوال
النعمة عن أخيه المسلم .

واعلم أن الحسد يوجب طول السهر ، وقلة الغذاء ، ورداءة
اللون ، وفساد المزاج ، ودوام الكمد .

قيل لأعرابى عاش مائة وعشرين سنة ما أطول عمرك ؟ فقال :
تركت الحسد فبقيت .

واعلم أنه لا يقع الحسد إلا فى أمور الدنيا ؛ فإنك لا ترى أحداً
يحسد قوام الليل ولا صوام النهار ، ولا العلماء على العلم بل على الصيت
والذكر .

وعلاج هذا المرض أن يعلم الإنسان أولاً أن الأقدار السابقة لا بد
أن تجرى ، وأن الاحتيال فى صرف المقدور غير ممكن ، وأن القسام
حكيم ، ثم هو مالك ؛ يعطى ، ويحرم ، فهو الذى خلق الطرف السابق
والكودن . وكأن الحاسد مضاد لإرادة المعطى سبحانه ؛ وقال بعض
الحكماء :

ألا قل لمن كان لى حاسداً أتدرى على من أسأت الأدب
أسأت على الله فى فعله لأنك لم ترض لى ماوهب
فجازاك عنى بأن زادنى وسد عليك وجوه الطلب
ثم إن المحسود لم ينقص الحاسد من رزقه ، ولم يأخذ شيئاً من

يده ، فقصد الحاسد زوال ما أعطيه ظلم محض . ثم ينبغي للحاسد أن ينظر في حال المحسود ، فإن كان إنما نال الدنيا فقط ، فهذا ينبغي أن يرحم ؛ لا أن يحسد ، لأن الذي ناله في الغالب عليه ، لا له ، وهل فضول الدنيا إلا هموم كما قال المتنبي :

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته مآقاته وفضول العيش أشغال

وبيان هذا ، أن الكثير المال شديد الخوف عليه ، والكثير الجوارى شديد الحذر عليهن ، قوى الاهتمام بهن ، أو لهن ، والوالى خائف من العزل . ثم ليعلم أن النعم كثيرة الأكرار ، ثم هي قليلة اللبث ، والمصائب تردفها ، فإن صاحب النعمة ينتظر زوالها ، أو زواله عنها ، ثم ليوقن أن ما يحسد عليه المحسود ليس هو عند المحسود كما هو عند الحاسد ، فإن الناس يظنون في أرباب المناصب أنهم في غاية اللذة ، ولا يدرون أن الإنسان يسمو إلى أمر فإذا ناله برد عنه وصار عادة لهو ، فهو يسمو إلى ما هو أعلى منه . وهذا الحاسد يرى الأمر بعين الجدة والغبطة . وليعلم الحاسد أنه لو عاقبه المحسود لما ناله بأشد من الأذى الذى هو فيه ، فإن لم ينتفع بشيء من هذا العلاج فليسع في التسبب إلى مثل مانال المحسود .

فقد قال بعض السلف : لقد خشيت لهم حتى في الحسد ، فإن الرجل إذا حسد جاره على الغنى سافر وتاجر ليصير مثله ، أو على العلم سهر وتعلم ، فقد صار الناس يحبون البطالة ، ثم يذمون الواصل إلى المعالى ، وما أحسن ما قال الرضى :

ذنبى إلى البهم الكوادر أننى الطـ	رف المطهم والأغر الأقرح
يولوننى خزر العيون لأننى	غلست فى طلب العلى وتصبحوا
وجذبت بالطول الذى لم يجذبوا	ومتحت بالغرب الذى لم يمتحوا
لو لم تكن لى فى العيون مهابة	لم يطعن الأعداء فى ويقدحوا

فإن لم ينل مانال المحسود فلتكن مجاهدته إمساك لسانه عن ثلبه ،
وحبس ما في قلبه .

فصل

وقد جاءت الأحاديث بدم الحسد بسنده إلى الزبير بن العوام ،
قال ، قال رسول الله ﷺ : « دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد
والبغضاء ؛ والبغضاء هي الحالقة ؛ حالقة الدين لا حالقة الشعر ، والذي
نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أنبئكم بشيء إذا فعلتموه
تحاببتم افشوا السلام بينكم » (١) .

وبسنده قال عمر بن ميمون (٢) رأى موسى عليه السلام رجلاً
عند العرش فغبطه بمكانه ، فسأل عنه فقال نخبرك بعمله لا يحسد الناس
على ما آتاهم الله من فضله ولا يمشى بالثيمة ولا يعق والديه .

وبسنده إلى سالم عن أبيه ، قال ، قال رسول الله ﷺ :
« لاحسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله عز وجل القرآن فهو يقوم به آناء
الليل والنهار ، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه في الحق آناء الليل
والنهار » (٣) أخرجاه في الصحيحين .

(١) أخرجه أحمد ١٦٥/١ و ١٦٧ ، والبيهقي ٢٣٢/١٠ والبغوى في شرح السنة
٢٥٩/١٢ ، والترمذي (٢٥١٠) .

(٢) عمر بن ميمون ؛ قال الحافظ في التقریب : هو ابن بحر بن سعد بن الرماح
البلخي أبو علي القاضي ثقة وعمي في آخره من السابعة روى له الترمذي .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخاري ١٣٤/٢ ، ٧٨/٩ و ١٢٦ ؛ ومسلم

الباب الثاني عشر في دفع الحقد

الحقد بقاء أثر القبيح من المحقود في نفس . ولعمري إن العقل يقضى ببقاء أثر القبيح كما يقضى ببقاء أثر الجميل .

وبسنده إلى عبد الله بن كعب ابن مالك ، قال سمعت كعب بن مالك يحدث في حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ فذكر القصة ونزول توبته ، قال فدخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس ، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ، قال فكان كعب لا ينساها لطلحة . أخرجاه في الصحيحين (١) .

فإذا ثبت أن الجميل لا ينسى ، فالقبيح كذلك ، إلا أنه يستحب الاجتهاد في إزالة أثر القبيح من القلب . وعلاج ذلك أن يكون بالعفو والصفح وللعفو محلان : أحدهما رؤية الثواب للعافي . والثاني شكر من جعل هذا في مرتبة من يعفو ، وذلك في منزلة من يهفو . ومن كمال العفو حصول الرضا وذلك بمحو مافي القلب .

وهنا علاج أدق من هذا ، وهو أن يرى الإنسان أن الذي سُلط عليه لأذاه إنما هو بذنب منه أو لتكفير خطأ ، أو لرفع درجة ، أو لاختباره في صبره . وثم علاج أدق من هذا وهو أن يرى الأشياء من المقدر .

(١) أخرجه البخاري ٤/٦ ، ومسلم التوبة ٥٣ .

الباب الثالث عشر في دفع الغضب

لقد بينا أن الغضب إنما ركب في طبع الآدمي على دفع الأذى عنه والانتقام من المؤذى له ، وإنما المذموم إفراطه ؛ فإنه حينئذ يزيل التماسك ، ويخرج عن الاعتدال ، فيحمل على تجاوز الصواب وربما كانت مكانته في الغضبان أكثر من مكانته في المغضوب عليه . والغضب حرارة تنتشر عند وجود ما يغضب ، فيغلي عندها دم اللذات طلباً للانتقام ، وربما أثر الحمى . وسببه في الغالب الكبر ، فإن الإنسان لا يغضب على من هو أعلى منه . وعلاجه أولاً أن يتثبت الغضبان ، ويغير حاله ؛ فإن كان ناطقاً سكت ، وإن كان قائماً قعد ، وإن كان قاعداً اضطجع ؛ ليسكن تلك الفورة . وإن خرج في الحال عن المكان وبعد عن المغضوب عليه كان أصلح ، ثم يتفكر في فضل كظم الغيظ ، فقد مدح الله سبحانه القوم فقال ﴿ وَالكَاضِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ فإن رأى ما سلط عليه بذنبه ، أو شاهد قدرة المسلط على ما ذكرنا في الحقد هان الأمر .

فصل

وقد جاء في هذا أحاديث ؛ فذكر بسنده إلى أبي هريرة قال : « أتى النبي ﷺ رجل فقال أوصني ، قال : لا تغضب ، فردد مراراً قال لا تغضب » رواه البخاري (١) .
وقال رسول الله ﷺ : « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » أخرجاه (٢) .

(١) أخرجه البخاري ٣٥/٨ (الأدب) .

(٢) أخرجه البخاري ٣٤/٨ ، ومسلم ص ٢٠١٤ .

وأخرجنا من حديث سليمان بن صرد قال كنت جالسا مع النبي ﷺ ورجلان يستبان ، وأحدهما قد احمر وجهه وانتفخت أوداجه فقال النبي ﷺ : « إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد » (١) فقالوا له إن النبي ﷺ قال : نعوذ بالله من الشيطان الرجيم فقال أوى جنون .

وروى أبو داود في « سننه » من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب ، وإلا فليضطجع » (٢) .

قال الخطابي القائم متهىء للحركة والبطش والقاعد دونه في هذا المعنى .

وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا غضب أحدكم فليسكت » وقال الأحنف : ما اعترض التثبت في الغضب إلا وهى شيطان العجلة .

فصل

ومتى لم يسكن الغضبان عند شدة فورته لم يؤمن أن تبدر منه

(١) أخرجه البخارى ٣٥/٨ ، ومسلم البر والصلة ١٠٩ . وكان في المطبوعة عن سلمان والصحيح سليمان .

(٢) أبو داود في الأدب باب (٤) [٤٧٨٢] ، أحمد ١٥٢/٥ . وشرح السنة ١٦٢/٣ ، موارد الظمان ١٩٧٣ . وقال البغوى قيل إنما أمره بالعود والاضطجاع لئلا يحصل منه في حال غضبه ما يندم عليه فإن المضطجع أبعد في الحركة والبطش من القاعد والقاعد من القائم .

نكاية يندم عليها إما في نفسه أو في المغضوب عليه ، فكم ممن غضب فقتل وجرح أو كسر عضو ولده ثم بقى الدهر نادماً على ما فعل . ومنهم من ينكأ في نفسه ، فإن رجلاً غضب مرة فصاح فنفث الدم في الحال ، وأدى به الأمر إلى الهلاك ، فمات ولكم رجل رجلاً فانكسرت أصابع اللاكم ولم يستضر الملكوم .

ومن العلاج أن يتصور الغضبان حاله عند الغضب ، ثم يتصور حاله عند السكون ، فحينئذ يعلم أن حالة الغضب حالة جنون وخروج عن مقتضى العقل . ومتى لم ينش عزم الغضبان عن ضرب المغضوب عليه فاستقر وغير ذلك ووعد نفسه بالفعل بشرط الثبت ، فإنه إذا حصل الثبت رأى قبح ما عزم عليه ، فترك .

فصل

وقد كان السلف إذا غضبوا ، غفروا وصفحوا طلباً لفضيلة العفو ، وكظم الغيظ . ومنهم من يرى السبب في إغضابه ذنوب نفسه . ومنهم من يرى أنه مختبر . إلى غير ذلك مما ذكرناه في باب الحقد . وفي بعض كتب الله تعالى « يا ابن آدم اذكرني إذا غضبت أذكرك إذا عصيت فلا أمحقك مع من أمحق وإذا ظلمت فارض بنصرتي فإن نصرتي خير لك من نصرتك لنفسك » .

وقال مورك ماتكلمت بكلمة في الغضب فندمت عليها في الرضا . وكان ابن عون لا يغضب فإذا أغضبه الرجل قال بارك الله فيك .

فصل

ولا ينبغي للغضبان على الشخص أن يعاقبه في حال غضبه ،
وإن كان مستحقاً للعقوبة ؛ بل يمهّل حتى يسكن الغضب ، لتكون
العقوبة بمقدار الإساءة ، لا بمقدار الغضب .

أتى عمر بن عبد العزيز برجل كان واجداً عليه فقال : لولا أنى
غضبان لضربتك ثم خلى سبيله .

* * *

الباب الرابع عشر في دفع الكبر

الكبر تعظيم شأن النفس واحتقار الغير وذلك يكون بسبب الترفع على من هو دونه إما في النسب أو المال أو العلم أو العبادة أو غير ذلك . وعلامة الكبر الأنفة ممن يتكبر عليه ، والاختيال والفخر ومحبة تعظيم الناس له . وعلاج ذلك نوعان : جملي وتفصيلي ؛ فأما الجملي : فنوعان علمي وعملي ، فالعلمي ، في الأدلة السمعية والعقلية على رذائل الكبر ، وأما العملي فصحبة المتواضعين وسماع اخبارهم ، وأما التفصيلي فإن ينظر إلى رذائل النفس ، وأن يعلم أن ما يتكبر به ، إن كان مالا فهو مأخوذ منه عن قريب ، والفضل إنما يكون في الغنى عن الشيء لا به ، لأن الغنى بالشيء فقير إليه ، وإن كان علماً فقد سبقه خلق كثير أعلم منه ، ثم علمه ينهاه عن حالته ، فهو حجة عليه ، كذلك إن كان عملاً تم رؤيته للعمل بعين التمام نقيصة .

فصل

ذكر بسنده إلى أبي سلمة ، قال : إلتقى عبد الله بن عمرو وابن عمر على المروة ، فنزلا فتحدثا ، ثم مضى عبد الله بن عمرو ، وقعد ابن عمر يبكي ، فقليل له ما يبكيك فقال هذا (يعني عبد الله بن عمرو) زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كبه الله تعالى في النار على وجهه (١) » .

(١) أخرجه البيهقي ١٩١/١٠ . وعزاه الهيثمي في المجمع ٩٨/١ للطبراني في الكبير وأحمد وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح .

وبسنده إلى إياس بن سلمة ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب من الجبارين حتى يصيبه ما أصابهم » (١) .

وفي افراد مسلم من حديث ابن مسعود ، عن النبي ﷺ إنه قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر فقال الرجل إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة قال إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس » (٢) .

وفي افراده من حديث الأغر عن أبي هريرة وأبي سعيد ، قالا : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل : العز إزارى والكبرياء رداؤى فمن نازعنى فيهما عذبتة » (٣) .

قال الخطابي ومعنى هذا الكلام أن الكبرياء والعظمة صفتان لله اختص بهما لا يشركه فيهما أحد ولا ينبغي لمخلوق أن يتعاطاهما ، لأن صفة المخلوق التواضع والتذلل ، وضرب الرداء والإزار مثلاً يقول والله أعلم كما لا يشرك الإنسان في إزاره وردائه فكذلك لا يشركنى في الكبرياء والعظمة مخلوق .

(١) أخرجه الترمذى (٢٠٠٠) والبخارى في شرح السنة ١٦٧/١٣ والديلمى (٧٥٧٦)

والحديث فى اسناده عمر بن راشد وهو ضعيف .

(٢) أخرجه مسلم ٩٣/١ .

(٣) أخرجه مسلم البر والصلة (١٣٦) بلفظ العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعنى عذبتة .

قال وقوله : لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر يتأول على وجهين أحدهما أنه كبر الكفر ، والثاني أنه ينزع الكبر من قلوب أهله قبل دخولهم الجنة ، وقوله وغمط الناس أنه أزرى بهم واستخف بهم ، ويقال غمط وعمص . وبسنده إلى الحسن قال تراهم يهدرون عند هدير الفحل أنت والله أنت والله وتراه مقنعاً ساكتاً يحسب حميق أنه مثل ما يقال له ، قال وترى أحدهم يتخزل في مشيته يسحب عظامه عظماً عظماً لا يمشى طبيعة .

* * *

الباب الخامس عشر في دفع العجب

العُجْب إنما ينشأ من حب النفس . والمحجوب لا ترى زلته ولا يعتقد نقصه ، بل يرى بعين الكمال ومن بلایا العجب أنه يؤدي إلى بغض الأمر الذي به وقع العجب ، لأن المعجب بنفسه في أمر لا يتزید منه ، ثم يترقى إلى أن يعيب غيره في الاعتقاد والنقص في سواه . وعلاج العجب البحث عن عيوب النفس على ما بينا آنفاً ، وسؤال الغير عن قبائحها ومعاييبها ، والنظر في أحوال من سبقه ، إلى ما أعجب به وبرز عليه ، فإن عجب العالم بعلمه فليُنظر في سير العلماء أو بزهده ، فليُنظر في سير الزهاد ، فحينئذ لا يعد نفسه .

فقد كان الإمام أحمد يحفظ ألف ألف حديث .

وكان كهمس بن الحسن يختم كل يوم وليلة ثلاث مرات .

وصلى سلمان التيمي الفجر بوضوء العتمة أربعين سنة .

ومن تأمل سير القوم رأى نفسه فيما حصل بالإضافة إليهم كمن معه دينار يعجب به ولا يدرى أن في الدنيا من يملك ألفاً كثيرة .

وبسنده قال ابراهيم الخواص العُجْب يمنع من معرفة قدر النفس .

وقال بعض الحكماء عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله وما أضر العجب بالمجلس .

الباب السادس عشر في دفع الرياء

من عرف الله تعالى حق معرفته أخلص له عمله . وإنما يقع الرياء من قلة المعرفة له ، وتعظيم قدر الحق ، وإيثار النفس مدحهم ، وحمدهم والناس في هذا المرض متفاوتون ؛ فمنهم من لا يقصد بعمله إلا مدح الخلق له ، ومنهم من يريد الله بعمله ، ويريد مدح المخلوقين ، ومنهم من لا يقصد الخلق أصلاً ، فإذا اطلعوا عليه حسن العمل وجوده ليمدح ، فهذه آفة دخلت على عمل صحيح . وعلاج هذا المرض في الجملة تحقيق معرفة الله سبحانه ، فمن عرفه أفرد القصد له ، ولم ير غيره ، وأقام نفسه في مقام العابد الذليل للمعبود ؛ لا في مقام معبود ممدوح ، ورأى أن حصول الأجر إنما يكون بخالص العمل ، فاحترس من تعب ضائع . والعقوبة على الرياء شديدة .

بسنده حديث عمر بن الخطاب : « إنما الأعمال بالنية وإنما لكل امرئ ما نوى » (١) .

وبسنده إلى أبي موسى ، قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أرأيت أن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياءً فأى ذلك في سبيل الله ، قال : فقال رسول الله ﷺ « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » متفق (٢) عليها .

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى ٢/١ و ١٧٥/٨ و ٢٩/٩ ، ومسلم الإمارة (١٥٥) .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى ٤٣/١ و ٢٥/٤ و ١٠٥ ، ١٦٦/٩ ، ومسلم الإمارة (١٤٩ و ١٥٠ و ١٥١) .

وبسنده إلى أبي هريرة ، قال له ناتل الشامي : أيها الشيخ حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة : رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال ما عملت فيها قال قاتلت فيك حتى قتلت قال كذبت ولكنك قتلت لي قال هو جرىء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال ما عملت فيها قال تعلمت فيك العلم وعلمته وقرأت القرآن فقال كذبت ولكنك تعلمت لي قال هو عالم وقرأت القرآن لي قال هو قارىء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال ما عملت فيها قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت لي قال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار » (١) انفرد بإخراجه مسلم .

وبسنده إلى أبي هريرة عن النبي ﷺ يرويه عن ربه عز وجل « قال انا خير الشركاء فمن عمل عملاً فأشرك فيه غيري فأنا بريء منه وهو للذي أشرك » (٢) أخرجه مسلم .

(١) أخرجه مسلم الإمارة (١٥٢) .

وفي المطبوعة قائل الشامي وهو خطأ والصحيح ناتل الشامي قال النووي في شرح مسلم ٥٦٨/٤ : هو ناتل بن قيس الخزاعي الشامي من أهل فلسطين وكان أبوه صحابياً وكان ناتل كبير قومه .

وقال النووي في هذا الحديث إن العموميات الواردة في فضل الجهاد إنما هي لمن أراد الله تعالى بذلك مخلصاً وكذلك الثناء على العلماء والمنفقين في وجوه الخيرات كله محمول على من فعل ذلك لله تعالى مخلصاً .

(٢) مسلم الزهد ٤٦ ، أحمد ٣٠١/٢ ، ابن خزيمة (٩٣٨) ، ابن ماجه الزهد ٢١ .

وبسنده إلى محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟! قال : الرياء يقول الله تعالى لهم يوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم ذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً » (١) .

وبسنده إلى أبي حازم قال لا يحسن عبد فيما بينه وبين العباد ولا يعور فيما بينه وبين الله إلا عورَ الله ما بينه وبين العباد ، ولمصانعة وجه واحد أيسر من مصانعة الوجوه كلها ، إنك إن صانعت هذا الوجه مالت إليك الوجوه كلها وإذا أفسدته شتأتك الوجوه كلها (٢) .

وبسنده إلى ابن توبة أبي جعفر عبد الله قال رأيت أبا بكر الأدمي القاريء في النوم بعد موته يمد يده فقلت له ما فعل الله بك فقال وقضى بين يديه وقاسيت شدائد وأمورا صعبة فقلت له فتلك الليالي والمواقف والقرآن فقال ما كان شيء أضر على منها لأنها كانت للدنيا فقلت فيلى أى شيء انتهى أمرك قال قال لى تعالى آليت على نفسى أن لا أعذب أبناء الثمانين .

(١) أخرجه أحمد ٤٢٨/٥ .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢٣٩/٣ من طريق أحمد بن حنبل عن علي بن عياش عن محمد بن مطرف عن أبي حازم ، قال لا يحسد عبد فيما بينه وبين الله تعالى إلا أحسن الله فيما بينه وبين العباد ، ولا يعور فيما بينه وبين الله تعالى إلا عورَ الله فيما بينه وبين العباد ، ولمصانعة وجه واحد أيسر من مصانعة الوجوه كلها : إنك إذا صانعت الله مالت الوجوه كلها إليك وإذا أفسدت ما بينك وبينه شتأتك الوجوه كلها .
وكان في المطبوعة شنعتك وحددناها من الحلية .

الباب السابع عشر في دفع فضول الفكر

اعلم أن الفكر يراد لاستدراك فارط ، والنظر في مصلحة مستقبلية ؛ فإذا كان فيما لا يثمرهما كان ضرراً ، وإذا كثر أنك البدن . قال بقراط ينبغي للعلماء ان يتركوا الفكر وقتاً ما لئلا ينهك أبدانهم .

قلت : ولا يجوز للعاقل ان يخلى نفسه من الفكر ولكن يكون فيما يتصور له نيله ، فأما إذا تفكر العاقل في أن يكون خليفة وأن ينال علم أبي حنيفة والشافعي ، ثم يجمع بينه وبين زهد بشر ومعروف الكرخي ، ويحصل مثل مال عبد الرحمن بن عوف ؛ فهذه أفكار تضني وتردى خصوصاً إذا قنع بالفكر ، واستعمل الكسل عن الطلب ، وإنما ينبغي أن يتفكر فيما تصل إليه قدمه ، ويطمع لمثله فيه من الخير ، ويتفكر في جهاده للطبع في دفع الشر ، فقد تفكر خلق كثير من العصاة في عواقبهم ، فتابوا وكثير من الملوك في غرور الدنيا ، فتزهدوا .

قال ابن عباس : ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه (١) .

ويسنده إلى أم الدرداء قيل لها ما كان افضل عمل ابى الدرداء ؟ قالت : التفكير والاعتبار (٢) .

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد ص ٤٠٣ ، ومحمد بن نصر في قيام الليل ص ٦٠ .

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد ص ٣٠٢ من طريق عون بن عبد الله عن أم الدرداء ، أنه قيل لها ما كان أكثر عمل أبى الدرداء قالت التفكير . وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٢٠٨/١ قالت : التفكير والاعتبار ، ٢٠٩/١ عن أبى الدرداء : تفكر ساعة خير من قيام ليلة .

ووقف مالك بن دينار ليلة في داره على قدمه إلى الفجر فقال :
مازال أهل النار يعرضون عليّ بسلاسلهم وأغلالهم إلى الصباح .
وقال بعض الحكماء : بترداد الفكر ينجاب العمى .

* * *

الباب الثامن عشر في دفع فضول الحزن

اعلم أن العاقل لا يخلو من الحزن ؛ لأنه يتفكر في سالف ذنوبه فيحزن على تفريطه ، وفيما قال العلماء والصالحون فيحزن لفوته .

بسنده إلى مالك بن دينار قال : إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب ، كما أن البيت إذا لم يسكن خرب (١) .

وبسنده إلى إبراهيم بن عيسى (٢) قال : مارأيت أطول حزناً من الحسن وما رأيته قط إلا حسبته حديث عهد بمصيبة .

وبسنده إلى مالك بن دينار قال بقدر ما تحزن للدنيا كذلك يخرج هم الآخرة من قلبك وإذا قد تبين أن الحزن لا يزال ملازماً لقلوب المتقين فينبغي أن يتقى إفراطه لأن الحزن إنما يكون على الفائت وقد عرفنا طريق الاستدراك .

وجاء في الحديث : « بقية عمر المؤمن لا قيمة له يستدرك فيه مافات » فإن كان المحزون عليه لا يمكن استدراكه لم ينفع الحزن ، وإن كان ديناً فينبغي أن يقاومه برجاء الفضل والرحمن ليعتدل الحال ، فأما إذا كان الحزن لأجل الدنيا وما فات منها فذلك الخسران المبين ، فليدفعه

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣٦٠/٢ عن مالك بن دينار بلفظ : « إذا لم يكن في القلب حزن خرب ، كما إذا لم يكن في البيت ساكن يخرب » .
(٢) أبو نعيم في الحلية ٣٩٣/١٠ قال أبو نعيم : إبراهيم بن عيسى الزاهد صاحب معرف الكرخي وسمع من أبي داود الطيالسي ومحمد بن المقرئ .

العاقل عن نفسه . وأقوى علاجه أن يعلم أنه لا يرد فائتاً وإنما يضم إلى المصيبة فتصير اثنتين ، والمصيبة ينبغي أن تخفف عن القلب وتدفع ، فإذا استعمل الحزن والجزع زادت ثقلًا . قال ابن عمرو إذا استأثر الله بشيء فالة عنه ثم في الخلف عن الفائت مايسلى ، فإن عدم مايسلى اجتهد في صرف ذلك عن قلبه ، وليعلم أن الداعى إلى الحزن الهوى ، لا العقل ، لأن العقل لا يدعو إلى مالا ينفع ، وليعلم أنه سيسلو بعد حين ، فليجتهد في تقديم المؤخر ، وليرتح ما بين الزمانين ، ومما يمحى الحزن العلم بأنه لا يفيد ، والإيمان بالثواب ، ويذكر من أصابه أكثر من مصيبته .

الباب التاسع عشر في دفع فضول الغم والههم

الغم يكون للماضي ، والههم للمستقبل ، فمن اغتم لما مضى من ذنوبه نفعه غمه على تفريطه ، لأنه يثاب عليه ، ومن اهتم بعمل خير ، نفعته همته ، فأما إذا اغتم لمفقود من الدنيا فالمفقود لا يرجع ، والغم يؤذى ، فكأنه أضاف إلى الأذى أذى ، كما قلنا في الحزن ، وينبغي للحازم أن يحترز مما يجلب الغم ، وجالبه فقد المحبوب ، فمن كثرت محبوباته كثر غمه ، ومن قللها قل غمه ، فإن قال قائل إذا لم أجد محبوباً اغتممت ، قيل له صدقت ، ولكن لا يبلغ غمك بالعدم معشار عشر غم من فقد المحبوب ، ألا ترى أن من لا ولد له يغتم ، ولكن لا كغم من أصيب بولده ، ثم إن الإنسان كلما طال ألفه لما يحبه واستمتع به تمكن من قلبه ، فإذا فقدته أحس من مر التألم في لحظة لفقده بما يزيد على لذات دهره المتقدم ، وهذا لأن المحبوب ملائم للنفس كالصحة فلا تجد النفس لذتها إلا عند وجودها ، وفقدتها مناف لها ، ولذلك تألم بالفقد ما لا تفرح بالموجود لأنها ترى وجود المحبوب كالحق الواجب لها ، فينبغي للعاقل تقليل الألفة ، فإن اضطر إلى جوالب الغم فاثمرت الغم فعلاجه في الأول الإيمان بالقدر ، وأنه لا بد مما قضى ، ثم يعلم أن الدنيا موضوعه على الكدر ، فالبناء إلى النقض ، والجمع إلى التفرق ، ومن رام بقاء ما لا يبقى كان كمن رام وجود ما لا يوجد ، فلا ينبغي أن يطلب من الدنيا ما لم توضع عليه كما قال الشاعر :

طبع على كدر وأنت تريدها صفواً من الإيذاء والأكدار

ثم يتصور ما نزل به مضاعفاً فيهن عليه حينئذ ما هو فيه ، ومن عادة الحمال الحازم أن يترك فوق حمله شيئاً ثقيلاً ، ثم يمشى خطوات ، ثم يولى به فيخف الأمر عنه ، ثم ليرتقب زمن العافية هجوم البلاء ، فإذا

هجم ماكرهه ، وليتمثل كلما يتصور نزوله نازلاً ، فإذا نزل بعض ذلك
كان ربحاً مثل أن يتصور أن يؤخذ ماله كله ، فإذا أخذ البعض عد الباقي
غنيمة ، ويتصور أن يعمى ، فإذا رمد سهل الأمر ، وكذلك جميع
المضرات قال الشاعر :

يمثل ذو اللب في نفسه مصائبه قبل أن تنزلا
فإن نزلت بغته لم ترعه لما كان في نفسه مثلاً
وذو الجهل يأمن أيامه وينسى مصارع من قد خلا
فإن بدهته صروف الزمان ببعض مصائبه أعولاً
ولو قدم الحزم في أمره لعلمه الصبر حسن البلاء

قال بعض السلف : رأيت امرأة فتعجبت من نضارتها ، فقلت
هذا وجه ما طرقة حزن ، فقالت لا تقل هذا ، فما أعرف من ناله
مانالني ؛ كان لي زوج ، فاشتري أضحية فذبجها ، وله ولدان ، فقال
الأكبر للأصغر تعال حتى أريك كيف ذبح أبي الشاة ، فذبحه ، فلما
طلبناه هرب ، فخرج الأب في طلبه فهلكا ، فقلت وكيف حزنك ،
قالت لو وجدت في الحزن دركا لاستعملته .

فصل

وقد يقع الحزن والغم من غلبة السوداء فيعالج بما يزيل السوداء
بالمفرحات . والغم يجمد الدم ، والسرور يلهب الدم حتى تعلو حرارته
الغريزية ، وجميعاً يضران ، وربما قتلا إن لم يعجل تفتيرهما .

الباب العشرون في دفع فضول الخوف والحذر من الموت

الخوف والحذر إنما هما للمستقبل ، والحازم من أعد للخوف عدته قبل وقوعه ، ونفى فضول الخوف مما لا بد منه ، إذ لا ينفعه خوفه منه ، وقد اشتد الخوف من الله تعالى بكثير من الصالحين حتى سألوا الله تعالى تقليل ذلك ، والسبب في سؤالهم أن الخوف كالسوط فإذا ألح بالسوط على الناقة قلقت ، وإنما ندب به المتواني .

بسنده إلى سفيان الثوري قال لشاب يجالسه أتحب أن تخشى الله حق خشيته ؟ قال نعم ، قال أنت أحق لو خشيته حق خشيته ما أديت الفرائض (١) .

فصل

ولا ينبغي للعاقل أن يشتد خوفه من نزول المرض ، فإنه نازل لا بد ، وخوف مالا بد أن يأتي زيادة أذى ، فأما الخوف من الموت والفكر فيه ، فإنه لا سبيل إلى دفعه عن النفس ، وإنما يخفف الأمر العلم بأنه لا بد منه ، فلا يفيد الحذر إلا زيادة على المحذور ، وكلما تصورت شدته كانت كل تصويره موتاً ، فليصرف الإنسان فكره عن تصور الموت ليكون ميتاً مرة لا مرات ، ويكون صرف الفكر رجحاً ، وليعلم أن الله تعالى قادر على

(١) سفيان الثوري قال الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢٢٩/٧ - ٢٧٩ هو شيخ الإسلام إمام الحفاظ سيد العلماء العاملين في زمانه أبو عبد الله الثوري الكوفي مصنف كتاب الجامع ولد سنة سبع وتسعين . ومات في أول سنة إحدى وستين ومائة .

تهوينه إذا شاء ، وليوقن بأن مابعده أخوف منه ، لأن الموت قنطرة إلى منزل إقامة ، وإنما ينبغي للإنسان أن يكثر من ذكر الموت ليعمل له ، لا لنفس تصويره وتمثيله ، فإن خطر على القلب الحزن على فراق الدنيا فعلاج ذلك أن يعلم أنها ليست بدار لذة ، وإنما لذاتها راحة من مؤلم ، ومثل هذا لا ينافس فيه ، فإن حزن العاقل على فراق الدنيا لفوت العمل الصالح ، فقد كان السلف يحزنون لذلك . قال معاذ بن جبل عند موته : اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار ولا لغرس الأشجار ، ولكن لظماً الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند خلق الذكر .

فصل

ومن نزل به الموت فليعلم أنها ساعة تحتاج إلى معاناة صعبة لأن صورتها ألم محض ، وفراق المحبوبات ، ثم ينضم إلى ذلك هول السكرات ، والخوف من المال مآل ، ويأتى الشيطان فيسخط العبد على ربه ويقول انظر في أى شيء ألقاك ، وما الذى قضى عليك ، وكيف يؤلمك ، وها أنت تفارق ولدك وأهلك وتلقى بين أطباق الثرى ، فرمما أسخطه على ربه وكره قضاء الله تعالى إليه ، وأنطقه بكلام يتضمن نوع اعتراض ، وربما حسن إليه الجور فى الوصية ، وأن يزوى لبعض الورثة ، إلى غير ذلك من المحن ، فتعين حينئذ الحاجة إلى معالجة ابليس ومعالجة النفس .

وقد نقل أبو داود من حديث أبى اليسر عن النبى ﷺ أنه كان يقول : « أعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت » (١) .

(١) أخرجه أبو داود ١٥٥٢ و ١٥٥٣ ، والنسائى ٢٨٣/٨ من طريق أفلع =

وفي تلك الساعة يقول الشيطان لأعوانه إن فاتكم الآن لم تقدرُوا عليه أبداً . فأما العلاج لتلك الشدائد فينبغي أن نذكر قبله مقدمة وهو أن من حفظ الله في صحته حفظه الله في مرضه ، ومن راقب الله في خطراته حرسه الله عند حركات جوارحه .

وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة » (١) ثم قد سمعت قصة يونس عليه السلام لما كانت له أعمال خير متقدمة انتاشت من شدته فقال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (٢) [الصفات : ١٤٤] . ولما لم

= مولى أبى ايوب عن أبى اليسر أن رسول الله ﷺ كان يدعو « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من التوهم والهم ، وأعوذ بك من الغرق والحرق ، وأعوذ بك من أن يتخطبني الشيطان عند الموت ، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبراً وأعوذ بك أن أموت لديغاً .

وقال الخطابي : استعاذته من تحبط الشيطان عند الموت هو أن يستولى عليه الشيطان عند مفارقتة الدنيا فيصليه ويحول بينه وبين التوبة أو يعوقه عن اصلاح شأنه والخروج من مظلمة تكون قبله أو يؤيسه من رحمة الله أو يتكره الموت ويتأسف على حياة الدنيا فلا يرضى بما قضاه الله من الفناء والنقلة إلى الدار الآخرة فيختم له بالسوء ويلقى الله وهو ساخط عليه . وقد روى أن الشيطان لا يكون في حال أشد على ابن آدم منه في حال الموت ويقول لأعوانه : دونكم هذا فإن فاتكم اليوم لم تلحقوه بالله نعوذ من شره ونسأله أن يبارك لنا في ذلك المصراع وأن يختم لنا بخير . ا هـ .

(١) أخرجه الترمذى رقم (٢٥١٦) وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح . وأخرجه أحمد ٣٠٧/١ و ٣٠٨ ، والبيهقى في شعب الإيمان ، والأسماء والصفات ص ٧٦ ، وانظر الدر المنثور ٦٦/١ ، تفسير ابن كثير ٩١/٧ .

(٢) سورة الصفات ، الآية : ١٤٤ .

يكن لفرعون عمل خير لم يجد وقت الشدة متعلقاً فقيلاً له ﴿الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١) وكان عبد الصمد الزاهد يقول عند الموت : « سيدى لهذه الساعة خبأتك فأما من ضيع فى صحته فإنه يضيع فى مرضه »

كما نقل عن بعض الصحابة أنه رأى شيخاً يطلب من الناس فقال هذا ضيع أمر الله فى صغره فضيعه الله فى كبره .

فأما نفس العلاج فينبغى أن تشجع النفس وتقول لها إنما هى ساعة ثم أرجو كمال الراحة كما قال عليه السلام : « لا كرب على أهلك بعد اليوم » (٢) ودعى أبو بكر بن عياش عند الموت إلى الرجاء فقال كيف لا أرجوه وقد صمت له ثمانين رمضان .

وقال المعتمر بن سليمان : قال لى أبى « يابنى اقرأ على أحاديث الرخص لعلى ألقى الله وأنا حسن الظن به » .

فينبغى للمؤمن أن يرمى صوت الخوف ويحدو الناقة كما قال حادى البادية

بشرها دليلها وقالوا غداً ترين الطلح والجبالا
بسنده إلى أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل أنا عند ظن عبدى بى » متفق عليه .

وبسنده إلى جابر قال سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاث يقول : « لا يموت أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن » أخرجه مسلم .

(١) سورة يونس ، الآية : ٩١ .

(٢) أخرجه ابن ماجه ١٦٢٩ .

وقال الفضيل بن عياض : الخوف أفضل من الرجاء فإذا نزل الموت فالرجاء أفضل .

قلت وهذا صحيح لما بينا من أن الخوف سوط يساق به المتوانى ، فإذا كَلَّ البعير لم يبق إلا الرفق ، فإن قيل فما لقول في خوف عمر بن عبد العزيز عند الموت فالجواب أنه لما تعلقت به حقوق الرعية خاف من مطالب طبعه مبنى على الشح كان يقول إنما أخاف ولايتكم هذه على أنه قد كان يتمسك بأذيال الرجال فإن ابن عباس لما قال له أبشر يا أمير المؤمنين وُلِّيتَ فَعَدَلْتُ ثم شهادة فقال أتشهد لى بهذا عند الله يا ابن عباس (١) .

فصل

فإن اشتد بالمريض كرب ، فليحسب ذاك في باب الأجر ، فقد كانوا يستحبون للمريض شدة النزاع ليكفر ذلك عنه الذنوب ، بسنده إلى إبراهيم قال : كانوا يستحبون أن يجهدوا عند الموت . وذكر بسنده عن عمر بن عبد العزيز قال : ما أحب أن تهون على سكرات الموت أنه آخر مايكفر به عن المرء المسلم .

(١) هذا الكلام قاله ابن عباس رضى الله عنهما لأمر المؤمنين عمر بن الخطاب لما طعن أخرجه أحمد في المسند ٤٦/١ ، والبيهقى في اثبات عذاب القبر من طريق داود بن أبى هند عن عامر عن ابن عباس قال : دخلت على عمر بن الخطاب حين طعن فقلت أبشر بالجنة يا أمير المؤمنين أسلمت حين كفر الناس وجاهدت مع رسول الله ﷺ حين خذله الناس وقبض رسول الله ﷺ وهو عنك راض ولم يختلف في خلافتك إثنان وقتلت شهيداً فقال أعد على فأعدت عليه فقال والله الذى لا إله غيره لو أن لى ماعلى الأرض من صفراء وبيضاء لافتديت به من هول المطلع .

فصل

وينبغي للمريض مادام ثابت العقل أن يتوب ليلقى الله طاهراً من كل ذنب ، وأن مجرد وصيته ، وأن يسلم أهله وولده إلى الله سبحانه وتعالى ، فإنه يتولى الصالحين .

فصل

فإن أزعجه الشيطان بذكر البلى ، فليعلم أن البلى واقع على المركب والراكب قد رحل ، وليعلم أن الشريعة قد مضت بوصول المؤمن بعد الموت إلى النعيم الدائم ، فمن حقق الإيمان لم يحزن ، لأن مآل المؤمن إلى الخير ، ومن لم يتحقق الإيمان فليحزن لفقد التحقيق .

وبسنده إلى كعب عن النبي ﷺ قال « نسمة المسلم طير تعلق في شجر الجنة حتى يرجعها الله إلى جسده » (١) ومقصودنا من هذا الباب أن يكون الخوف من الموت بمقدار لئلا ينهك البدن ويبالغ في الأذى وأن يخاف لما بعد الموت فيعمل له .

* * *

(١) أخرجه البخارى فى التاريخ الكبير ٣٠٦/٥ ، والحميدى ٨٧٣ ، والطبرانى فى الكبير ٦٤/١٩ .

الباب الحادى والعشرون فى دفع فضول الفرح

إذا اشتد الفرح التهب الدم ، وذلك يضر ، وربما قتل إن لم يعدل ، وينبغى للإنسان إذا رأى اسباب الفرح أن يدرج نفسه إليه ، فإن يوسف عليه السلام لما التقى بأخيه سأله هل لك من أب ؟ ولم يزل يلاطفه لئلا يفجأه بالسبب المفرح ، والفرح ينبغى أن يكون بمقدار ليعدل الحزن ، فأما إذا أفرط فإنه دليل على الغفلة القوية ، إذ لا وجه للفرح عند العاقل ، فإنما يفرح بالطبع لما يفرح ، ثم يذكر مصيره وخوف مآله ، فينمحي ذلك الفرح ، ومتى قويت غفلة الفرح حملت إلى الأشر والبطر ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ (١) يعنى الأشرين الذين خرجوا بالفرح إلى البطر . وعلاج شدة الفرح بالفكر فيما قد سلف من الذنوب ، وفيما بين يدي العبد من الشدائد .

وقد قال الحسن البصرى فضح الموت الدنيا فلم يترك لذى لب بها فرحاً (٢) .

* * *

(١) سورة القصص : الآية : ٧٦ .

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل ص ٣١٦ من طريق إبراهيم بن عيسى الشكرى عن

الحسن به .

الباب الثاني والعشرون في دفع الكسل

الموجب للكسل حب الراحة ، وإيثار البطالة ، وصعوبة المشاق . وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان يكثر أن يقول « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل » (١) .

وفي أفراد مسلم من أفراد أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » (٢) .

وفي كل حين احرص على ماينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز ، فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا ، ولكن قل قدر الله وماشاء فعل ، فإن (لو) يفتح عمل الشيطان .

وقال ابن مسعود إني لأبغض الرجل أراه فارغاً ليس في شيء من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة (٣) وقال يكون في آخر الزمان أقوام أفضل أعمالهم التلاوم بينهم يسمون الأتيان .

وقال ابن عباس تزوج التواني بالكسل فولد بينهما الفقر .

وقال مالك بن دينار مامن أعمال البر شيء إلا ودونه عقبة ، فإن صبر صاحبها أفضت به إلى روح ، وإن جزع رجع .

وقال سفيان الثوري مضى القوم على الخيل العتاق وبقينا على حمر

دبرة .

(١) أخرجه البخاري ٩٨/٨ ، مسلم ص ٢٠٧٩ و ٢٠٨٠ و ٢٠٨٨ (عبد

الباقى)

(٢) أخرجه مسلم القدر (٣٤) .

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٣٠/١ من طريق يحيى بن وثاب عن ابن مسعود

رضي الله عنه .

فصل

وعلاج الكسل تحريك الهمة بخوف فوات القصد ، وبالوقوع في عقاب اللوم ، أو بالحصول في بيد التأسف فإن أسف المفرط إذا عاين أجر المجتهد أعظم من كل عقاب ، وليفكر العاقل في سوء مغبة الكسل ، فرب راحة أوجبت حسرات وندماً ، ومن رأى جاره قد سافر ثم عاد بالأرباح زادت حسرة أسفه على لذة كسله أضعافاً ، وكذلك إذا برع أحد الرفيقيين في العلم وتكاسل الآخر . والمقصود أن ألم الفوات يربو على لذة الكسل . وقد أجمع الحكماء على أن الحكمة لا تدرك بالراحة ، فمن تلمح ثمرة الكسل اجتنبه ، ومن مد فطنته إلى ثمرات الجد نسي مشاق الطريق . ثم إن اللبيب يعلم أنه لم يخلق عبثاً ، وإنما هو في الدنيا كالأجير أو كالتاجر . ثم إن زمان العمل بالإضافة إلى مدة البقاء في القبر كالحظة ، ثم إضافة ذلك إلى البقاء السرمدي ، أما في الجنة وأما في النار ليس بشيء . ومن انفع العلاج النظر في سير المجتهدين ، فالعجب من مؤثر البطالة في موسم الأرباح وتارك الاستلاب وقت النثار .

بسنده إلى فرقد ، قال إنكم لبستم ثياب الفراغ قبل العمل ألم تروا إلى الفاعل إذا عمل كيف يلبس أدنى ثيابه فإذا فرغ اغتسل ولبس ثوبين نقيين ، وأنتم لبستم ثياب الفراغ قبل العمل ^(١) .

* * *

(١) حلية الأولياء ٤٧/٣ من طريق ابن شوذب عن فرقد السبخي .

الباب الثالث والعشرون في تعريف الرجل عيوب نفسه

اعلم أن النفس محبوبة وعيوب المحبوب قد تخفى على المحب ، وفي الناس من يقوى نظره وجهاده للنفس فينزلها منزلة العدو في المخالفة فيظهر له عيوبها . قال إياس بن معاوية « من لم يعرف عيب نفسه فهو أحمق » فقل له فما عيبك قال « كثرة الكلام » وهذا أمر نادر والعمل على الغالب ، فإن الغالب أن يخفى الإنسان عيوب نفسه ولسنا نريد أنه لايعرف عيباً فإن العاقل إذا أتى عيباً عرفه ، وإنما غرضنا العيوب الباطنة ، فإنها كالأمراض الباطنة التي لايعلم بها الطبيب فيصف لها دواءً ، ولا عليها إمارة ، ومحبة الإنسان لنفسه تمنعه أن يرى العيب الخفى عيباً كما قال الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا
وقد روى أن رجلاً صحب رجلاً فلما أراد أن يفارقه قال له
أخبرني عن عيوبى فقال سل غيرى فإنى كنت أراك بعين الرضا .

فإن قيل فإذا كانت العيوب باطنة والإنسان لايراها عيوباً فكيف الطريق إلى تعرفها فالجواب إن لذلك سبع طرق :

الطريق الأول : أن يتخير صديقاً من أعقل مخالطيه ويسأله إبانة مايرى من قبيحة ويعرفه أن ذلك منة منه عليه ، فإذا أخبره ابتهج بما سمع منه ، ولم يظهر له الحزن على ذلك لئلا يقصر في شرح الأمور ، ويقول له متى كتمتنى شيئاً عددتك غاشاً .

والطريق الثانى : أن يبحث عما يقوله فيه جيرانه وإخوانه ومعاملوه وبماذا يمدحونه أو يذمونه .

والطريق الثالث : أن يتطلع إلى مايقول فيه الأعداء ؛ فإن العدو

بحاث عن العيوب ، ومن هذا الوجه ينتفع الإنسان بعدوه ما لا ينتفع بصديقه لأن العدو يذكر النقص والصديق يستر الخلل ، فإذا عرف الإنسان من طريق عدوه نقصه اجتنبه .

والطريق الرابع : أن يصور أفعاله في غيره ثم يستعمل منها ما يستحسن ويترك ما يستقبح .

والطريق الخامس : أن يعمل فكره في عواقب خلاله وثمراتها فيرى عيب العيب وحسن الحسن ، فإن الفكر الصادق نافذ .

والطريق السادس : أن يعرض أعماله على محك الشرع ويرى نافذ العقل ويضعها في موازين العدل ، فإنه يرى الأرجح والأدون .

والطريق السابع : أن ينظر في سير العاملين ثم يقيس أفعاله بأفعالهم فيرى حينئذ أن آثار النقص عيب فيجتنبه فضلاً عن فعل القبيح .

الباب الرابع والعشرون

في تنبيه الهمة الدنية

إذا كانت الهمة الدنية طبعاً لم ينجع فيها العلاج ؛ فإن كانت مكتسبة بصحبة الأدنياء أو لغلبة الطبع والهوى فعلاجها قريب ، وذلك من وجوه : منها مقاطعة أهل الدناءة أنفة منهم ومواصلة أرباب الهمم العالية ، ثم التفكير بالعواقب ، ومآل الدناءة ومصير أولى الجد والاجتهاد ؛ كما قال عبد الصمد : مات رجل من السعاة وقد بقى له شرط ، والناس يقولون له مت اليوم تحيا أبداً فانتبهت بها ، ومن تفكر في المرتفعين في الهمم علم أنهم كهو من حيث الأصلية والآدمية ، غير أن حب البطالة والراحة جنيا عليه فأوثقاه ، فساروا وهو قاعد ، ولو حرك قدم العزم لوصل قال الشاعر :

إذا أعجبتك خصال امرئ فكنه تكن مثل ما أعجبك
فليس على الجود والمكرمات إذا جئتها حاجباً يحجبك

ومن نظر في أخبار السلف رأى عموم الفقهاء والعلماء ، وأكثر المشار إليهم بذلك من الموالى ومن الضعفاء وأهل الحرف الدنية ، إلا أن الهمم أثرت فآثارت عن موطن ، ولو تفكر أرباب الهمم الدنية في عواقبها وما يجيء عليهم ، لرأوا البطالة عدواً ، وأنما صحبوا دناءة الهمة تعجلاً للراحة ، وما يلقونه من الحسرات على فوت الفضائل والسقوط من أعين الناس ؛ والإهانة بهم أعظم من كل كرب وشدة . وما يناله أرباب التعب من الراحة في تعظيم الخلق لهم ، وارتفاع قدرهم في الدنيا قبل الآخرة ، ينسى مرارة كل نصب ، فكأنه ماتعب من استراح ولا استراح من تعب .

بسنده إلى أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ في النار صبغة ثم يقال له يا ابن آدم هل

رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول لا والله يارب ، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ في الجنة صبغة ثم يقال له يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مرت بك شدة قط ؟ فيقول لا والله يارب مامر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط .

وبيان هذا أن التعب ينقضي وتبقى الراحة ، والراحة تذهب وتبقى الحسرة ، والمقام موسم ، والفوات معترض ، والاستلاب عاجل ، وفي بعض هذا إزعاج للمتوانى .

الباب الخامس والعشرون في رياضة النفس

الأصل في الأمزجة الصحة ، والعلل طارئة ، وكل مولود يولد على الفطرة ، ويوضح ماقلناه إن الرياضة لا تصلح إلا في نجيب ، والكودن لا تنفعه الرياضة ، والسبع وإن رى صغيراً لا يترك الافتراس إذا كبر ، وقد عرفت تلك الحكاية (فمن أنباك أن أباك ذيب) .

واعلم أن في الإنسان قوى ثلاثة : قوة ناطقة ، وقوة شهوانية ، وقوة غضبية ، فينبغى لمن شرفه الله تعالى بحب العلم أن يعتنى بتكميل النفس الناطقة التي فضله الله تعالى بها على سائر الحيوانات وشارك بها الملائكة ، فيجعلها هي المسطرة على القوتين الأخريين ؛ أعنى الشهوانية والغضبية ، لتكون منزلتها في البدن بمنزلة الراكب للفرس ، فإن الفارس ينبغى أن يكون هو المسلط على الفرس لاستعلائه فيمضى بها أين يشاء ويعقها إذا شاء ، فكذلك ينبغى أن تكون القوة الناطقة هي المستعلية على باقى القوى ، تستعملها كما تحب ، وتكفها حين تحب ، ومن كان كذلك استحق أن يسمى أنساناً حقيقة . قال أفلاطون : الإنسان بالحقيقة من كانت نفسه الناطقة أقوى الأنفس لأن الشهوانية إذا أفرطت خرج الإنسان إلى طبع البهيمية ، ومن سيب هواه في مرعاه وجعل حبله على غاربه فقد خرج عن مركزه فصار أخس من البهائم ، لأن تلك تمضى بطباعها ، وهذا قد خالف طبعه ، ومتى أفرطت القوة الغضبية خرج الإنسان إلى أخلاق السباع والضواري ، فينبغى أن يروض نفسه بمخالفة الشهوانية ويكسر الغضبية ، ويتبع القوة الناطقة ، حتى يتشبه بالملائكة ، ويتحرز من عبودية الشهوة والغضب .

فصل

واعلم أن الرياضة للنفس تكون بالتلطف والتنقل من حال إلى حال ، ولا ينبغي أن يؤخذ أولاً بالعنف ولكن بالتلطف ، ثم يمزج الرغبة والرغبة ، ويعين على الرياضة صحبة الأخيار ، والبعد عن الأشرار ، ودراسة القرآن والأخبار ، وإجالة الفكر في الجنة والنار ، ومطالعة سير الحكماء والزهاد .

وقد كان بعض السلف يشتهي الحلواء فيعدها لنفسه فإذا صلى بالليل أطعمها .

وكان الثوري يأكل مايشتهى ثم يقوم إلى الصباح ويقول أطعم الزنجي ولده ، ومازال المحققون يلطفون بنفوسهم إلى أن ملكوها فقهروها . وقال بعض جيران مالك بن دينار : سمعته ليلة يقول لنفسه هكذا فكوني ، فلما أصبحت قلت له مامعك في الدار أحد فلمن قلت ، قال إن نفسي طلبت مني أدما وألحت فمنعها الطعام ثلاثة أيام ، فلما كانت الليلة وقد انقضت الأيام وجدت كسرة يابسة فبادرت إليها ، فقلت قفى آتيك بخبز لين ، فقالت قنعت بهذه قلت هكذا فكوني .

واعلم أنه إذا علمت منك النفس الجدد جدت ، وإذا عرفت منك التكاسل طمعت فيك كما قال الشاعر :

ويعرف أخلاق الجواد جواده فيجهد كراً ويرهقه ذعراً

ومن الرياضة لها محاسبتها على كل فعل وقول ، ومحاسبتها في كل تقصير وذنب ، فإذا تمت رياضتها حمدت ماذمت من تعبها .

قال ثابت البناني : كابدت الليل عشرين سنة وتنعمت به عشرين سنة .

وقال أبو يزيد : مازلت أسوق نفسي إلى الله تعالى وهي تبكي
حتى سقتها وهي تضحك وفي هذا المعنى قول الشاعر :
مازلت أضحك أبكى كلما نظرت إلى أن اختضبت أجفانها بدمي
وبعد هذا فلا ينبغي أن ينسى حقها ، فإن من حقها إعطاءها
حظوظها التي لا تقدر في مقصود الرياضة فإنها إذا منعت مقاصدها في
الجملة عمى القلب ، وتشئت الهم ، وتكلف التعب ، وأعلم أن قدر
النفس عند الله سبحانه أعظم من قدر العبادات ، ولهذا أباح الفطر
للمسافر ، وإنما يعقل هذا العلماء .

الباب السادس والعشرون في ذكر رياضة الأولاد

أقوم التقويم ما كان في الصغر ، فأما إذا ترك الولد وطبعه فنشأ عليه ومرن كان رده صعباً قال الشاعر :

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولا يلين إذا قومته الخشب
قد ينفع الأدب الأحداث في مهل وليس ينفع في ذى الشيبة الأدب

ثم المواظبة على الرياضة أصل عظيم ، خصوصاً في حق الصبيان فإن ذلك يفيدهم أن يصير الخير عادة قال الشاعر :

لاتسه عن أدب الصغيـــــر وإن شكا ألم التعب

واعلم أن الطبيب ينظر إلى سن المعالج ومكانه وزمانه ثم يصف ، فكذلك ينبغي أن تكون رياضة كل شخص على قدر حاله ، وإمارة فلاح الصبي وفساده تتبين من طفولته ؛ فالنجيب منهم يتنبه بالتعلم ، والذي ليس بنجيب لا ينفعه التعلم ، كما لا يصير الهجان بالرياضة نجيباً ، وينبغي أن يتلف بالصبي .

قال رجل لسفيان الثوري نضرب أولادنا على الصلاة قال بل بشرهم .
وكان زبيد اليافي يقول للصبيان من صلى منكم فله خمس جوزات .
وقال إبراهيم بن أدهم : أي بني اطلب الحديث فكلما سمعت حديثاً فلك درهم فطلب الحديث على هذا .

فصل

وليعلم الوالد أن الولد أمانة عنده ، فليجنبه قرناء السوء من

الصغر ، ولا يعود ، ويلقى إليه الخير ، فإن قلبه فارغ يقبل مايلقى إليه ،
 وليحبب إليه الحياء والسخاء ، وليلبسه الثياب البيض ، فإن طلب الملون
 قال له تلك ملابس النساء والمخانيث ، وليبادر بأخبار الصالحين ، وليجنبه
 أشعار الغزل لأنها بذر الفساد ، ولا يمنع من أشعار السخاء والشجاعة
 لمجد وينجد ، فإن أساء تغافل عن إساءته ، ولا يهتك مؤدبه ما بينه وبينه
 من السر ، ولا يوبخ إلا سراً ، ويمنع من كثرة الأكل والنوم ، ويعود
 الخشونة في المطعم والمفرش فإنه أصبح لبدنه ، ويعالج بالرياضات
 الجسمانية كالمشي ، ويؤدب بالنهي عن استدبار الناس والامتخاط بينهم ،
 والتثأوب ، فإذا علقت به خلة قبيحة بولغ في ردعه عنها قبل أن تتمكن ،
 ولا بأس بضربه إذا لم ينفع اللطف .

فقد قال لقمان لابنه : يا بني ضرب الوالد للولد مثل السماد
 للزرع .

وإذا رآه عرماً في صغره فليتلطف به ، فقد قال ابن عباس عرامة
 الصبي زيادة في عقله .

فصل

وكان الحكماء يقولون : ابنك ريحانتك سبع سنين ، ونخادمك
 سبع سنين ، فإن صار ابن أربع عشرة سنة فإن أحسنت إليه فهو
 شريكك ، وإن أسأت إليه فهو عدوك ، ولا ينبغي أن يضرب بعد بلوغه
 ولا أن يساء إليه ، لأنه حينئذ يتمنى فقد الوالد ليستبد برأى نفسه ، ومن
 بلغ عشرين سنة ولم يصلح فبعيد صلاحه ، إلا أن الرفق متعين بالكل .

الباب السابع والعشرون في رياضة الزوجة ومداراتها

من المتعين المبالغة في النظر به هذا الباب ، فأصلح الأمور أن يتزوج الرجل البكر التي لم تعرف سواه ، فقد قالت الحكماء البكر لك والشيب عليك ، إلا أنه من أعظم الغلط أن يتزوج الشيخ الكبير طفلة فإنها تصير كالعدو ، ولكنه يحبسها عن أغراضها ولا تقدر أن تفي مرادها ، وهي تنفر عن الشيخ طبعاً ، فإن ابتلى الإنسان بذلك فليسم بغضه عندها بحسن خلقه واحتماله وكثرة الإنفاق عليها .

وقد أمعنا الشرح لهذه الجملة في كتاب « الشيب » وينبغي أن يتزين لها كما يجب أن تتزين له ، ويستر جسده عنها فلا ترى منه إلا المستحسن ، وكذلك ينبغي لها أن تفعل .

فصل

ولا ينبغي للرجل أن يمزح مع المرأة فتطمع فيه طمعاً يخرجها عن طاعته ، ولا أن يسلم ماله إليها فيصير هو كالرهن في يدها ، فرما استغنت واستوثقت لنفسها ثم تركته ، وقد قال الله تعالى ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ (١) : بل ينبغي أن يمزح بنوع من الهيبة.

فصل

وأكثر العلاج في إصلاح المرأة منعها من محادثة جنسها ، ومن خروجها من بيتها ، وإطلاعها من ذروته ، وأن تكون عنده عجوز تؤدبها وتلقنها تعظيم الزوج ، وتعرفها حقوقه ، وتعظم قليل الإنفاق عندها وتكون كالحافظ فإن عقل الصبي مأفون .

(١) سورة النساء ، الآية : ٥ .

فصل

وإن وجد الشيخ امرأة قد خرجت عن زمان الصبا ولم تدخل في الكهولة كانت أصلح وأطيب لعيشه وأقل امتناناً عليه وأكثر توقيراً له .

فصل

فأما الشاب فإنه يذلل ولا يُذلل ، فإذا أراد التمتع بالنساء فالرأى له ، إن كان له مكنة اشترى الجوارى الصغار فإنهن لم يعرفن الغيرة وهي قليلة عندهن لموضع الملكة وقدرته على الاستبدال والبيع ، ولتكن معهن حافظة ، ولتكن على الحافظة حافظة .

فصل

ومن رزق امرأة على مراداته فليهب ما فات لما حصل ، فإن الأصول إذا كانت محفوظة لم تذكر الفروع ، وكثرة النساء تحتاج إلى مؤنات عظام أقلهن حفظهن .

الباب الثامن والعشرون في رياضة الأهل والممالك ومداراتهم

اعلم أن الأهل إذا رأوك قد فقتهم بمال أو جاه حسدوك . ومقاطعتهم محرمة ، فالمدارة لازمة ؛ وذلك بالبر لهم مع كتمان بواطن الأحوال عنهم . ومن أعظم الغلط حرمان بعضهم وإعطاء البعض ، فمن اختار ذلك فليجتهد في إسرار الأمر لئلا يشتري بالمنع البغض . وأما الممالك فإنهم مالمكون على الحقيقة لمالكهم ، لأن المطاعم والمشارب إليهم ، فينبغي أن يتلطف بهم لئلا يحتالوا على القتل . قال بزرجمهر نحن ملوك على رعيتنا ، وخدمنا ملوك على أرواحنا ، ولا حيلة لنا في الاحتراز منهم ، فنحن نداريهم . وليجعل الملك مع اللطف بهم هيبة ، إلا أن البر لهم يكون أغلب ، وأكثره في حق من يسلم إليه الروح ، وهو صاحب المطعم والمشرب . واعلم أن الممالك وإن كانوا أهل ذكاء وفطنة يستتر منك عنهم شيء فرمما احتالوا عليك ، وإن كانوا أهل غباوة لم تبلغ غرضاً في استخدامهم لأنك تريد الشيء فلا يفهمون مرادك ، والصواب استخدام أهل الغفلة منهم في الدواخل ، وأهل الذكاء منهم خارج البيت ، فحينئذ تتم الأغراض .

فصل

ومن أعظم الغلط دخول المملوك المراهق إلى البيت ، خصوصاً إن كان حسن الصورة وفي البيت نسوة ، فإن الشر لا يؤمن فإن سلمن من ميل إليه لم يسلم هو من ميل .

وكذلك من باب المخاطر ترك الولد البالغ بين الجوارى ، ومعلوم أن قوة الشهوة وجهل الصبا ينسيان مقدار الحرمة والتحريم ، فهذه أصول ينبغي أن يداوى بدوائها ولا تمهل فإنها تجر أموراً صعبة .

الباب التاسع والعشرون في معاشرة الناس ومداراتهم

لما كانت طباع الناس تختلف كانت مداراتهم لذلك صعبة ، فأصلح ما استعمل العاقل العزلة عنهم مهما أمكن فإنها راحة عظيمة ، فإذا اضطر إلى مخالطتهم خالطهم بالتلطف ، وإيفائهم الحقوق ، وإهمال حقه عليهم ، والحلم عن جاهلهم ، والعفو عن ظالمهم ، وإيثار متكبرهم بالمجلس . ومن أعظم ما يملكهم به السماح والعطاء ، فإنه يسترق به من لم يكن ينقاد وقد جاء في الحديث « مداراة الناس صدقة » .

فصل

وإذا ابتلى العالم بمخالطة العوام فينبغي أن يلبس جنة الحذر ، فإن أغراضهم مختلفة ، يرضى أحدهم ما يسخط الآخر ، ويغضب من الصواب ، لأنه يراه خطأ ، ولا يقبل مع جهله أقوال العلماء ، فليبعد العالم عنهم ما استطاع ، فإن مخالطتهم تشينه ، وتنقص من مقداره في أعينهم ، فيهون علمه عندهم ، ولو رآه عاص يضحك ، أو يأكل ، أو سمع أنه قد تزوج ، لم يبق له عنده قدر ، فالحذر الحذر منهم ، فإنهم قتله الأنبياء ، فإذا اضطر إلى مجالستهم فليقلل الكلام معهم ، وليتكلم بما لا تسلق لهم به عليه ، ولا فيه احتمال لما لا يصلح لخطابهم ، وبعد هذا فالسلامة منهم طريفة .

* * *

الباب الثلاثون في ذكر السيرة الكاملة

علامة الكامل تربية القدرة له من الطفولة ، واعطاؤه الرأي التام ،
والعقل الوافر من الصغر ، كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ
قَبْلُ ﴾ وتخلق له همة عالية وشرف نفس ، فتحمله على طلب المعالي ،
وتمنعه ركوب الدنایا ، فتراه في لعبه يحب أن يكون رئيس الصبيان ، فإذا
ترعرع كان الأدب شعاره من غير تعلم ، والحياء لباسه من غير ترهيب ،
وأقل الرياضة فيه يؤثر ، كما ينفع المسن الفولاذ ولا ينفع الحديد ، فإذا
عقل واستدل على صانعه ، وعلم لماذا خلق ، ونظر بماذا خوطب ، وإلى
أين يصير ، وما المراد منه ، شمر عن ساق وساق ، فيطلعه العلم على
حقائق الأمور ، فيرى أن أفضل الأشياء ما يقربه من خالقه ، ثم يرى أن
أقرب ما يقرب به العلم والعمل ، فيجتهد في إكاملهما على غاية ما يطيق
منهما بدنه ، وينهض النية والعزيمة بحمل الباقي . وأنت ترى خلقاً يقتصرون
على بعض فنون العلم ؛ فهذا مع النحو جميع عمره ، وهذا مع الحديث
طول دهره ، وهو يرى أن كل العلوم مقصود ، غير أنه لما علم أن العمر
لا يسع الكل أخذ ما يحتاج إليه من الكل زاداً لمسيره ، ونهض للعمل
بمقتضاه ، فتراه ينتهب العمر خوف أن يذهب وما نال المراد ، ولا يضيع
لحظة في غير مهم ، وينافس نفسه في زمان المطعم والنوم ، لعلمه بقصر
المدة كما قال الشاعر :

فاقضوا مآربكم عجالاً إنما أعماركم سفر من الأسفار
وتراكمضوا خيل السباق وبادروا أن تسترد فإنهم عواری

فهو أبداً يجتهد في عمارة وقته ، ويقهر هواه لإصلاح أمره ، ويقطع
من العلم مهمه ، فقلبه مشغول عن اللهو بتصحیح قصده ، وجوارحه

مقبلة بالجد على طاعة ربه ، وقد اقتنع بما رزقه الله عن منن خلقه ، وعف
عن أموالهم حفظاً لعرضه ، فسادهم لغناه عنهم ، وأزال فسادهم
بوعظه ، فإن عاملهم فبالإنصاف ، لم يأخذ عليهم بفضله ، وإن
استشاروه اجتهد في نصيحهم ، على أنه مشغول عن الكل بنفسه ،
متأهب للنقلة ، همه جمع رحله يؤدي إلى كل لحظة فرضها من الحراسة
بقوى لربه ويستظهر بكثرة الزاد لعلمه طول شوطه ، ثم يجتهد في تهذيب
العلم في حياته ليحيى به أثره بعد موته ، وقد زهد في الدنيا ، ولا يتناول
إلا قوت وقته ، فإن فسح لنفسه في مباح ، فمراده تقوية جملة على
حملة ، ثم لم يزل به عرفان خالقه حتى دعاه إلى حبه ، فانصب الصب ،
وانخرط في سلكه ، فهو بين الخلق بجسمه ، وعند الخالق بقلبه ، أولئك
ريحان الله في أرضه ، نفوس أنفاس المريدين باستنشاق ريح أحدهم
وبلفظه ، ويفوح نشر صدقهم بعد دفن راجلهم في لحده ، قد ألبست
قبورهم هيبة تخبر عن كل بقدره ، وإذا ذكرت أعمالهم يقوى بها المرید في
طريق صبره ، والمتقون في فلك القيامة نجوم ، وهم كشمسه أو كبدره ،
رزقنا الله وفاقهم ، ووهب لنا لحاقهم ، وألبسنا أخلاقهم بسعة فضله ، إنه
سميع قريب من عبده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

فهرس الأحاديث والآثار

الصفحة

- ٤٨ ابن عباس إِبْشِرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَيْتَ فَعَدَلْتَ (أثر)
- ٤٤ سفيان الثوري أَتَحِبُّ أَنْ تَخْشَى اللَّهَ حَقَّ خَشْيَتِهِ (أثر)
- ٤٦ ابن عباس احفظ الله يحفظك
- ١١ ابن مسعود إِذَا أَعْجَبْتَ أَحَدَكُمْ امْرَأَةً فَلْيَذْكُرْ مَثَابَهَا (أثر)
- ٢٨ أبو ذر إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ
- ٢٨ ابن عباس إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ
- ٤٥ أبو اليسر أَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ
- ٣٦ أبو هريرة أَنَا خَيْرُ الشَّرَكَاءِ فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا ...
- ٣٧ محمود بن لبيد إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافَ عَلَيْكُمْ الشَّرْكَ
- ٤٠ مالك بن دينار إِنْ الْقَلْبُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ حُزْنٌ (أثر)
- ٣٦ أبو هريرة إِنْ أَوَّلَ النَّاسِ يَقْضَى فِيهِ يَوْمُ الْقِيَامَةِ
- ١٥ إِنْ نَوَّحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَبِثَ فِي بَيْتٍ شَعْرَ أَلْفِ سَنَةٍ ...
- ٥٢ فرقد السبخي إِنْكُمْ لَبِستمُ ثِيَابَ الْفَرَاغِ قَبْلَ الْعَمَلِ (أثر)
- ٣٥ عمر بن الخطاب إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى
- ٥١ ابن مسعود إِنِّي لَا أَبْغُضُ الرَّجُلَ أَرَاهُ فَارِغًا لَيْسَ فِي شَيْءٍ (أثر)
- ٢٨ سليمان بن صود إِنِّي لِأَعْلَمَ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ
- ١٩-١٨ عبد الله بن عمرو إِيَّاكُمْ وَالشَّحَّ فَإِنَّ الشَّحَّ أَهْلَكَ ...
- ٤٠ مالك بن دينار بِقَدْرِ مَا تَحْزَنُ لِلدُّنْيَا (أثر)
- ٦٠ سفيان الثوري بَلْ بَشَرَهُمْ (أثر)
- ٥١ ابن عباس تَزُوجِ التَّوَانِي بِالْكَسَلِ فَوَلَدَ بَيْنَهُمَا الْفَقْرُ (أثر)

- ١٩ عبد الله بن عمرو خصلتان لا تجتمعان في مؤمن
 ٤٨ الفضيل بن عياض الخوف أفضل من الرجاء (أثر)
 ٢٥ الزبير بن العوام دب اليكم داء الأمم قبلكم
 ٢٥ عمر بن ميمون رأى موسى عليه السلام رجلاً عند العرش (أثر)
 ٣٨ ابن عباس ركعتان مقتصدتان في تفكر (أثر)
 ٦١ ابن عباس عرامة الصبي زيادة في عقله
 ٥٠ الحسن البصري فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فرجا (أثر)
 ٤٧ أبو هريرة قال الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي (قدسي)
 كابدت الليل عشرين سنة وتنعمت عشرين سنة
 ٥٨ ثابت البناني (أثر)
 ١٥ كان في ثوب عمر اثنا عشرة رقعة
 ٢٢ ابن مسعود كل الخلال يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب
 ٢٧ ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه
 لولا أني غضبان لضربتك (أثر)
 ٣٠ عمر بن عبد العزيز
 ٤٠ إبراهيم بن عيسى مارأيت أطول حزنا من الحسن (أثر)
 ٢٩ مورك ماتكلمت بكلمه في الغضب فندمت عليها (أثر)
 ٥٩ أبو يزيد مازلت أسوق نفسي إلى الله تعالى وهي تبكي (أثر)
 ٥١ مالك بن دينار مامن أعمال البر شيء إلا ودونه عقبة (أثر)
 ١٦ أبو إمامة مامن رجل يلي أمر عشرة فما فوق
 ٢٢ ابن مسعود ما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب
 ٥١ سفيان الثوري مضى القوم على الخيل العتاق (أثر)
 ٢١ أبو الدرداء من فقه الرجل بعد النظر في معيشتة (أثر)
 ٣٥ أبو موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله

١٨	ابن عمر	من أدى الزكاة فليس ببخيل
٣١	عبد الله بن عمرو	من كان في قلبه مثقال حبة من خردل
٤٩	كعب	نسمة المسلم طير تعلق في شجر الجنة
١٦	أبو هريرة	ويل للأمرء ويل للعرفاء
٢٧	أبو هريرة	لا تغضب
٢٥	ابن عمر	لا حسد إلا في اثنتين
٤٧		لا كرب على أبيك بعد اليوم
٣٢	ابن مسعود	لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر
٣٧	أبو حازم	لا يحسن عبد فيما بينه وبين العباد (أثر)
٣٢	سلمة	لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب (أثر)
٤٧	جابر	لا يموت أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله
١٧-١٦	أبو ذر	يا أباذر انك ضعيف وإنها أمانة
١٧	أبو ذر	يا أباذر إني أحب لك ما أحب لنفسى
٢٩	أبو ذر	يا ابن آدم اذكرني إذا غضبت أذكرك إذا عصيت
٥٥	أنس	يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار
٣٢	أبو هريرة وأبو سعيد	يقول الله عز وجل العز إزارى (قدسى)

فهرس الأشعار

الصفحة	القافية
٤٣	تنزلا
٤٧	والجبالا
١٢	صرفا
٥٣	المساويا
٢٣	الأدب
٦٠	الخشب
٦٠	التعب
١٠	آفات
٢٤	الأقرح
٦٦	الأسفار
١٥	الفقر
١٢	شطط
٥٥	ما أعجبك
٢٤	أشغال
٥٩	بدمى

فهرس الأعلام

الاسم	الصفحة
إبراهيم بن أدهم	٤٨ و ٦٠
إبراهيم بن موسى	٤٠
إبراهيم الخواص	٣٤
أحمد بن حنبل	٣٤
الأحنف	٢٨
أنس	٥٥
إياس بن سلمة	٤٠
إياس بن معاوية	٥٣
بشر الحافي	٣٩
بقراط	٣٨
ثابت البناني	٥٨
جابر بن عبد الله	٤٧
الحارث بن كلدة	١٣
الحسن البصري	٣٣ و ٥٠
الخطابي	٢٨ و ٣٢
زبيد اليافي	٦٠
الزبير بن العوام	٢٥
سفيان الثوري	٦٠، ٥٨، ٥١، ٤٤
سلمان التيمي	٣٤
سلمان بن صرد	٢٨

الصفحة	الاسم
٣٢	سلمة
١٣	سمرة
٣٨	الشافعي (الإمام)
٦١، ٥١، ٤٨، ٤٦، ٣٨، ٢٨	عبد الله بن عباس
٣١ و ٢٥ و ١٨	عبد الله بن عمر
٣١ و ١٨	عبد الله بن عمرو
٢٦	عبد الله بن كعب بن مالك
١١ و ٢٢ و ٣١ و ٥١	عبد الله بن مسعود
٣٩	عبد الرحمن بن عوف
١٣	عقبة الراسبي
٣٦ و ٣٥	عمر بن الخطاب
٤٨ و ٣٠	عمر بن عبد العزيز
٢٥	عمر بن ميمون
٥٢	فرقد السبخي
٤٨	الفضيل بن عياض
٤٩ و ٢٦	كعب بن مالك
٣٤	كهمس بن الحسن
٥٨، ٥١، ٤٠، ٣٩	مالك بن دينار
١٨	أبو محمد الرامهرمذي
٣٧	محمود بن لييد
٤٧	المعتمر بن سليمان
٣٨	معروف الكرخي
٢٥	موسى عليه السلام

الصفحة	الإسم
١٥	نوح عليه السلام
٥٠	يوسف عليه السلام
٤٦	يونس عليه السلام
١٦	أبو إمامة
٣٧	أبو بكر الأدمي
٤٧	أبو بكر بن عياش
٣٧	أبو جعفر عبد الله
٣٧	أبو حازم
٣٩	أبو حنيفة (الإمام)
٣٩ و ٢١	أبو الدرداء
٢٨ ، ١٧	أبو ذر
٣٢ و ٣١	أبو سعيد
٣١	أبو سلمة
٣٥	أبو موسى
٤٧ ، ٣٦ ، ٢٧ ، ١٦	أبو هريرة
٥٩	أبو يزيد
٤٥	أبو اليسر
٣٨	أم الدرداء

فهرس الموضوعات

الصفحة

٣ ترجمة المؤلف
٥ مقدمة الكتاب
٦ ترجمة الأبواب
٧ الباب الأول : فى فضل العقل
٨ الباب الثانى : فى ذم الهوى
 الباب الثالث : فى الفرق بين ما يرى العقل وما يرى
١٠ الهوى
١١ الباب الرابع : فى دفع العشق عن النفس
١٣ الباب الخامس : فى دفع الشره
١٦ الباب السادس : فى رفض رياسة الدنيا
١٨ الباب السابع : فى دفع البخل
٢٠ الباب الثامن : فى النهى عن التبذير
٢١ الباب التاسع : فى بيان مقدار الإكتساب والإنفاق
٢٢ الباب العاشر : فى ذم الكذب
٢٣ الباب الحادى عشر : فى دفع الحسد
٢٦ الباب الثانى عشر : فى دفع الحقد
٢٧ الباب الثالث عشر : فى دفع الغضب
٣١ الباب الرابع عشر : فى دفع الكبر
٣٤ الباب الخامس عشر : فى دفع العجب
٣٥ الباب السادس عشر : فى دفع الرياء

الصفحة

٣٨	الباب السابع عشر : فى دفع فضول الفكر
٤٠	الباب الثامن عشر : فى دفع فضول الحزن
٤٢	الباب التاسع عشر : فى دفع فضول الغم والهم
	الباب العشرون : فى دفع فضول الخوف والحذر من
٤٤	الموت
٥٠	الباب الحادى والعشرون : فى دفع فضول الفرح
٥١	الباب الثانى والعشرون : فى دفع الكسل
	الباب الثالث والعشرون : فى تعريف الرجل عيوب
٥٣	نفسه
٥٥	الباب الرابع والعشرون : فى تنبيه الهمة الدنية
٥٧	الباب الخامس والعشرون : فى رياضة النفس وتهذيبها ...
٦٠	الباب السادس والعشرون : فى ذكر رياضة الأولاد
٦٢	الباب السابع والعشرون : فى رياضة الزوجة ومداراتها
	الباب الثامن والعشرون : فى رياضة الأهل والممالك
٦٤	ومداراتهم
٦٥	الباب التاسع والعشرون : فى معاشرة الناس ومداراتهم
٦٦	الباب الثلاثون : فى ذكر السيرة الكاملة
٦٩	فهرس الأحاديث والآثار
٧٢	فهرس الأشعار
٧٣	فهرس الأعلام
٧٦	الفهرس العام

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويري

مكتبة الخانجي

ص . ب ١٣٧٥ القاهرة

مطبعة المحدث

المؤسسة السمودية بمصر
٦٨ شارع المباسية - القاهرة ت : ٨٢٧٨٥١

